كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الثالث عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ٣١٨١

الشطر الثاني

من الكتاب في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق

بيان

حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه في الاستقبال . وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر ، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق ، كان ذلك نقصا في الشهود . وإنما دوام الشهود غاية المقامات . ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول :

حال الخوف ينتظم أيضا من علم ، وحال ، وعمل . أما العلم ، فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه . وذلك كمن جنى على ملك ، ثم وقع في يده ، فيخاف القتل مثلا ، ويجوّز العفو والإفلات . ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته . وكون الملك في نفسه حقودا ، غضوبا ، منتقما . وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام ، خاليا عمن يتشفع إليه في حقه . وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف ، وشدة تألم القلب . وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سببه

جناية قارفها الخائف ، بل عن صفة المخوف ، كالذى وقع فى مخالب سبع ، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع ، وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا ، وإن كان افتراسه بالاختيار

وقد يكون من صفة جبلّية للمخوف منه ، كخوف من وقع فى مجرى سيل ، أو جوار حريق ، فإن الماء يُخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق

فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه . وذلك الإحراق هو الخوف . فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعيوب نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، تكون قوة خوفه . فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « أنا أَخوَفُكُمْ للهِ » وكذلك قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) . ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات

أما فى البدن فبالنحول ، والصفار ، والغشية ، والزعقة ، والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفضى إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس

وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى ، وتقييدها بالطاعات ، تلافيا لما فرط ، واستعدادا للمستقبل . ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذى النون : متى يكون العبد خائفا ؟ قال إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام

وأما فى الصفات ، فبأن يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما . فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الذبول ، والخشوع ، والذلة ، والاستكانة ،

---

(١) حديث أنا أخوفكم : البخارى من حديث أنس والله انى لاخشاكم لله واتقاكم له وللشيخين من حديث عائشة والله انى لاعلمهم بالله وأشدهم له خشية

---

(١) فاطر : ٢٨

ويفارقه الكبر ، والحقد ، والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة ، والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع فى مخالب سبع ضار ، لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلك . فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه ، لا متسع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف ، واستولى عليه . وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين . وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحتراقه . وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله ، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال . وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع عن المحظورات . ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا . فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم ، فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه . ويسمى ذلك تقوى . إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه . وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به ، مخافة ما به بأس . وهو الصدق فى التقوى . فإذا انضم إليه التجرد للخدمة ، فصار لا يبنى ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه ، فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا . ويدخل فى الصدق التقوى ، ويدخل فى التقوى الورع ، ويدخل فى الورع العفة ، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة . فإذاً الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف والإقدام ، ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة . وأعلى منه الورع ، فإنه أعم ، لأنه كف عن كل محظور . وأعلى منه التقوى ، فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا . ووراءه اسم الصديق والمقرب ، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم ، فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول الإنسان إما عربى وإما عجمى ، والعربى إما قرشى أو غيره ، والقرشى إما هاشمى أو غيره ، والهاشمى إما علوى أو غيره ، والعلوى إما حسنى أو حسينى . فإذا ذكرت أنه حسنى مثلا ، فقد وصفته بالجميع . وإن وصفته بأنه علوى ، وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه . فكذلك إذا قلت صديق ، فقد قلت إنه تقى ، وورع ، وعفيف فلا ينبغى أن تظن أن كثرة هذه الأسامى تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

على من طلب المعانى من الألفاظ ، ولم يتبع الألفاظ المعانى

فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف ، وما يكتنفه من جانب العلو ، كالمعرفة الموجبة له ، ومن جانب السفل . كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما

بيان

درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد . وهو غلط : بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى . والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وكذا الصبى . ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة . وكذلك الخوف له قصور ، وله إفراط ، وله اعتدال . والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء ، يخطر بالبال عند سماع آية من القرءان ، فيورث البكاء ، وتفيض الدموع . وكذلك عند مشاهدة سبب هائل . فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع . وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية ، لا يؤلمها ألما مبرحا ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها . وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء . ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء ، والمتسمين بأسمائهم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف . بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت ، وإن قلت : نعم ، كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ، ويقيدها بالطاعات . وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر ، لا يستحق أن يسمى خوفا

وأما المفرط . فإنه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال ، حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا ، لأنه يمنع من العمل . وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل . فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط ، وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان ، لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل ،

فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ، ولو عرف لم يكن خائفا ، لأن الخوف هو الذى يتردد فيه .
وأما العجز ، فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فإذاً هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى .
وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به . وما لا يجوز
وصف الله به فليس بكمال فى ذاته ، وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون
احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت . فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم

وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل .
وقد يخرج إلى الموت . وكل ذلك مذموم ، وهو كالضرب الذى يقتل الصبى ، والسوط
الذى يهلك الدابة أو يمرضها ، أو يكسر عضوا من أعضائها . وإنما ذكر رسول الله صلى الله
عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط
أو أحد هذه الأمور . فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه .
وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم . وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة
والعبادة ، والفكر ، والذكر ، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى . وكل ذلك يستدعى
الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل . فكل ما يقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم

فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموما ؟

فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف ، كان لا ينالها لو مات
فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف . فهو بالإضافة إليه فضيلة . . فأما بالإضافة إلى تقدير
بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله ، فليس بفضيلة . بل للسالك إلى الله تعالى بطريق
الفكر ، والمجاهدة ، والترقى فى درجات المعارف ، فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء . ولولا هذا
لكانت رتبة صبى يقتل ، أو مجنون يفترسه سبع ، أعلى من رتبة نبى أو ولى يموت حتف أنفه
وهو محال . فلا ينبغى أن يظن هذا . بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى
فكل ما أبطل العمر ، أو العقل ، أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها ، فهو خسران ونقصان
بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى ، كما كانت الشهادة
فضيلة بالإضافة إلى ما دونها ، لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين

فإذاً : الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذى لا يزيد فى حركة

الدابة . وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره . فإن لم يحمل إلا على العفة ، وهى الكف عن مقتضى الشهوات ، فله درجة . فإذا أثمر الورع ، فهو أعلى . وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين ، وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى ، حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع . فهذا أقصى ما يحمد منه . وذلك مع بقاء الصحة والعقل . فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة ، فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه . ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل

بيان

أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه . والمكروه إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار ، وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه ، كما تكره المعاصى لأدائها إلى مكروه فى الآخرة ، كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت . فلا بد لكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره فى قلبه ، حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه . ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره ، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء ، أو خوف ما لا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا

أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف .

فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة . والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا إلى بقية الأقسام

وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر . وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة تتبع السابقة ، وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة ، كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع ، يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه . ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره ، وأنه عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته ، وأنه ما الذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أو غضب . وهذا التفات إلى السبب ، فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع . فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم ، أعلى من الالتفات إلى ما يظهر فى الأبد .

وإليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر ، فقبض كفه اليمنى ثم قال[1] « هَذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هَذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلَ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفُوَاقِ* نَاقَةٍ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَخْرِجُهُمُ اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفُوَاقِ نَاقَةٍ السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ » . وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته وإلى من يخاف

---

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب

* الفواق : هو مابين الحلبتين من الراحة ، وتضم فاؤه وتفتح

الله تعالى نفسه بصفته وجلاله، وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الغرور. والآمن إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى . وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية . بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ، ويسر له سبيلها ، ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد، ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات، ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا المطيع . فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ، ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده ، جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله . فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة ، وآتاه القدرة . وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة، يصير الفعل ضروريا . والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة ، وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا . فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه ؟ وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة ، فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل . ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه

ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال ، ولولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة . فقد جاء في الخبر [1] أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود ، خفني كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى ، وإن كان لا يقف بك على سببه . فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لأهله

---

(١) حديث ان الله تعالى أوحى الى داود ياداود خفني كما تخاف السبع الضاري: لم أجد له أصلا ولعل المصنف قصد بايراده انه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة

والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك، بل لصفته وبطشه، وسطوته، وكبره، وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالى. فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك، بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا. بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدح ذلك فى عالم سبعيته، وما هو موصوف به من قدرته وسطوته. ولله المثل الأعلى. ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هى أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة، أنه صادق فى قوله هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى. ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل فى أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى، والحياء من كشف الستر، والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم، وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى

وكل هذه الأسباب مكروهة فى نفسها، فهى لا محالة مخوفة. وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين. وما قبل ذلك خوف العاملين، والصالحين، والزاهدين، وكافة العالمين. ومن لم تكمل معرفته، ولم تنفتح بصيرته، لم يشعر بلذة الوصال، ولا بألم البعد والفراق. وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار، وإنما يخاف الحجاب، وجد ذلك فى باطنه منكرا وتعجب منه فى نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم؛ لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين، بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم. فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره

فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

بيـــان

فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه فى الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة . إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا فى لقاء مولاه والقرب منه . فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته . وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله فى الآخرة إلا بتحصيل محبته ، والأنس به فى الدنيا . ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة . ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر . ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر . ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها . ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات . ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف. فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ، وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق . وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة ، وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار ، فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى ، والرحمة ، والعلم ، والرضوان ، وهى مجامع مقامات أهل الجنان . قال الله تعالى (هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [1]) وقال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [2]) وصفهم بالعلم لخشيتهم . وقال عز وجل (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [3]) . وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم . ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه . فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء ، لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم

(١) الأعراف : ١٥٤ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) البينة : ٨

ولذلك [1] لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى ، كان يقول « أَسْأَلُكَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ماورد فى فضائلهما ، حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى ، مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى ، والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين ، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه ، فقال تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [1]) وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق . ولذلك قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [2]) ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى ، فقال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ [3]) وقال عز وجل (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [4]) فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان . فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى [2] « إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَقْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَدْنَاهُمْ فَيَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى قَدْ أَنْصَتُّ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ الْيَوْمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُمْ نَسَبًا فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ قُلْتُ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا فُلَانُ بْنُ

---

(١) حديث لما خير فى مرض موته كان يقول اسألك الرفيق الأعلى : متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح انه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه فى حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلمت انه لا يختارنا وعرفت انه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح ـ الحديث :

(٢) حديث اذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه اقصاهم كما يسمعه ادناهم فيقول يا أيها الناس انى قد انصت اليكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فأنصتوا الى اليوم انما هى اعمالكم ترد عليكم أيها الناس انى جعلت نسبا ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف والثعلبي فى التفسير مقتصرا على آخره انى جعلت نسبا ـ الحديث : من حديث ابى هريرة

---

(١) الحج : ٣٧ (٢) الحجرات : ١٣ (٣) النساء : ١٣١ (٤) آل عمران : ١٧٥

وأبيتم إلا فلان بن فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب »

وقال عليه الصلاة والسلام [1] « رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود [2] « إنْ أردتَ أنْ تلقاني فأكثرْ منَ الخوفِ بعدي »

وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلي رحمه الله : ماخفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة مارأيته قط . وقال يحيي بن معاذ : مامن مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ، ورجاء العفو ، كثعلب بين أسدين

وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام : وأما الورعون فإنه لايبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه ، إلا الورعين ، فإني استحي منهم ، وأجلهم أن أوقفهم للحساب . والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامي وكذلك ماورد في فضائل الذكر لايخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين . فقال (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى [1]) وقال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [2])

وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ وَعِزَّتِي [3] لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلاَ أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « مَنْ خَافَ اللهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ خَوَّفَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ خَوْفًا للهِ تَعَالَى وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا »

---

(١) حديث رأس الحكمة مخافة الله : ابو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح ايضا

(٢) حديث ان اردت ان تلقاني فأكثر من الخوف بعدي قاله لابن مسعود : لم اقف له على اصل

(٣) حديث لاأجمع على عبدي خوفين ولاأجمع له أمنين : ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا

(٤) حديث من خاف الله خافه كل شيء ـ الحديث : أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي امامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم

(٥) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ـ الحديث : لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء

---

(١) الأعلى : ١٠ (٢) الرحمن : ٤٦

وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه : مسكين ابن آدم ، لوخاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة. وقال ذوالنون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه ، واشتد لله حبه، وصح له لبه . وقال ذوالنون أيضا : ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء ، فإذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ؛ لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإن انقطع زمامه هلك مع الهالكين

وقيل ليحيى بن معاذ : من آمنُ الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لاتجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير . فقال : والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : مافارق الخوف قلبا إلا خرب

وقالت [1] عائشة رضي الله عنها . قلت يارسول الله (الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [1]) هو الرجل يسرق ويزني؟ قال « لاَ بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُ » . والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف ،لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه ،وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس .وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضادّ له . بل نقول كل ماورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف، لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته ، فإن كان لايخاف فوته فهو إذاً لايحبه فلا يكون بانتظاره راجيا

فالخوف والرجاء متلازمان، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر. نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف

---

(١) حديث عائشة قلت يارسول الله ـ الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ـ هو الرجل يسرق ويزني قال لا ـ الحديث: الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد * قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة

(١) المؤمنون ٦٠

فإذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة . فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف . والتقديران يتقابلان لامحالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه . نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ، ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر . فإذا غلب على الظن وجود المحبوب ، قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان . ولذلك قال تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [١]) وقال عز وجل (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً [٢]) ولذلك عبّر العرب عن الخوف بالرجاء . فقال تعالى (مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً [٣]) أى لا تخافون . وكثيرا ما ورد فى القرءان الرجاء بمعنى الخوف ، وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشىء بما يلازمه

بل أقول كل ما ورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية . فقد قال تعالى (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً [٤]) وقال تعالى (يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً [٥]) وقال عز وجل (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [٦])

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئاً مِنْ حَرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « إِذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِى الضَّرْعِ »

---

(١) حديث ما من مؤمن يخرج من عينه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب ـ الحديث : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٢) حديث اذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه ـ الحديث : الطبرانى والبيهقى فيه من حديث العباس بسند ضعيف

(٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة

---

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) السجدة : ١٦ (٣) نوح : ١٣ (٤) التوبة : ٨٣ (٥) الأسراء : ١٠٩ (٦) النجم : ٥٩ ـ ٦١

وقال عقبة بن عامر[١]. ماالنجاةيارسول الله ؟ قال « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » وقالت[٢] عائشة رضي الله عنها . قلت يارسول الله ،أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فَبَكَى »

وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « مامِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةِ دَمْعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى »

وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تَشْفِيَانِ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدُّمُوعُ دَمًا وَالأَضْرَاسُ جَمْرًا » وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك ، ومن لم يستطع فليتباك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لاتأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا ، فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه

---

(١) حديث قال عقبة بن عامر ماالنجاة يارسول الله قال أمسك عليك لسانك ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحدمن امتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى : لم أقف له على أصل

(٣) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب وقدتقدم

(٤) حديث اللهم ارزقنى عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير وفى الدعاء وابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ورواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله وذكر الدارقطنى فى العلل ان من قال فيه عن ابيه وهم وانما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا قال وسالم هذا يشبه ان يكون سالم بن عبد الله المحاربى وليس بابن عمر انتهى وماذكره من انه سالم المحاربى هو الذى يدل عليه كلام البخارى فى التاريخ ومسلم فى الكنى وابن أبى حاتم عن ابيه وابى احمد الحاكم فان الراوى له عن سالم عبد الله ابوسلمة وانما ذكروا له رواية عن سالم المحاربى والله اعلم نعم حكى ابن عساكر فى تاريخه الخلاف فى أن الذى يروى عن سالم المحاربى اوسالم بن عبد الله بن عمر

(٥) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ماتغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران . ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : والذى نفسي بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتي ، أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار

وروي [1] عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوعظنا موعظة رقت لها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي ، فدنت منى المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا . ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت في نفسى قد نافقتُ حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة . فخرجت وجعلت أنادى نافق حنظلة. فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : كلا لم ينافق حنظلة . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَلاَّ لَمْ يُنَافِقْ حَنْظَلَةُ » فقلت يارسول الله ، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا . فرجعت إلى أهلي ، فأخذنا في حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم « يَاحَنْظَلَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَبَداً عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ فِي الطُّرُقِ وَعَلَى فِرَاشِكُمْ. وَلَكِنْ يَاحَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً »

فإذاً : كل ماورد في فضل الرجاء والبكاء ، وفضل التقوى والورع ، وفضل العلم ومذمة الأمن ، فهو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به ، إما تعلق السبب ، أو تعلق المسبب

---

(1) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ـ الحديث : وفيه نافق حنظلة ـ الحديث : وفيه ولكن ياحنظلة ساعة وساعة مسلم مختصراً

بيـــان

أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت . وربما ينظر الناظر إليهما، فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما . وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد ، يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء . وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان : وهذا لأن كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه . والخوف والرجاء دواآن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود . فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به ، فالخوف أفضل . وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، فالرجاء أفضل . وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، فالخوف أفضل

ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل ، على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجبين مرض الصفراء . ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل . فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ، لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء ،فالرجاء أفضل، لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب،وليس وراء المحبة مقام،وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف ، فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل . فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وخفيه وجليه ، فالأصح أن يعتدل خوفه ورجاؤه . ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروي أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده:

يابني : خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء، واعتدالهما على الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى . فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوي خوفه ورجاؤه . فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثني من الذين أمروا بدخول النار ، كان ذلك دليلا على اغتراره

. فإن قلت :مثل عمر رضي الله عنه لاينبغى أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغى أن يغلب رجاؤه كما سبق فى أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغى أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح فى أرض نقية ، وواظب على تعهدها ، وجاء بشروط الزراعة جميعها ، غلب على قلبه رجاء الإدراك ، ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغى أن تكون أحوال المتقين

فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله . وذلك وإن أوردناه مثالا ، فليس يضاهى ما نحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاءها ، وصحة البذر ، وصحة الهواء ، وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها . وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه ، وقد بث فى أرض غريبة لم يتعهدها الزارع ولم يختبرها ، وهى فى بلاد ليس يدرى أتكثر الصواعق فيها أم لا . فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده ، وجاء بكل مقدوره ، فلا يغلب رجاؤه على خوفه . والبذر فى مسألتنا هو الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفى ، والنفاق ، والرياء ، وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا ، والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان وإن سلم فى الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ، ولم يجرب مثله ، والصواعق هى أهوال سكرات الموت ، واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لا يجرب مثله . ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة ، وذلك لم يجرب

فمن عرف حقائق هذه الأمور ، فإن كان ضعيف القلب ، جبانا في نفسه ، غلب خوفه على رجائه لامحالة ، كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين . وإن كان قوي القلب ، ثابت الجأش ، تام المعرفة ، استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يغلب رجاؤه فلا

ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه ، حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بعلم المنافقين . فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي؟ وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه ، وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟

وقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ » وفي رواية « إِلَّا قَدْرُ فُوَاقِ نَاقَةٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ » وقدر فوق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح ، إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت ، فيقتضي خاتمة السوء . فكيف يؤمن ذلك ؟

فإذاً أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه . وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة . ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا [1]) وقال عز وجل (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا [2]) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟

فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم

(١) حديث ان حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين : مسلم من حديث حذيفة في أصحابي اثنا عشر منافقا ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ـ الحديث :

(٢) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية الا قدر فواق ناقة ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزار والطبراني في الأوسط سبعين سنة واسناده حسن وللشيخين في اثناء حديث لابن مسعود ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ـ الحديث : ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة

(١) السجده : ١٦ (٢) الأنبياء : ٩٠

[illegible] وتقنيط العبد من المغفرة ، فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل ، وداعيا إلى الانهماك فى المعاصى ، فإن ذلك قنوط وليس بخوف . إنما الخوف هو الذى يحث على العمل ، ويكدر جميع الشهوات ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ، ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور ، فهو الخوف المحمود . دون حديث النفس الذى لا يؤثر فى الكف والحث ، ودون اليأس الموجب للقنوط

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق فى بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقى . من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد

فإذاً لا بد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت . أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل . فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ، ويعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاؤه

ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ، ليكون محبا للقاء الله تعالى . فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . والرجاء تقارنه المحبة . فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى ، حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه ، والقدوم بالموت عليه . ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل ، والولد ، والمال ، والمسكن والعقار ، والرفقاء . والأصحاب ، فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا ، فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب . فموته خروج من الجنة ، وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه . ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه

فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى ، وسوى ذكره ، ومعرفته ، والفكر فيه ، والدنيا

وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا إذاً سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن . ولا يخفى حال من أفلت من السجن ، وخلي بينه وبين محبوبه بلامانع ولا مكدر

فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب، فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين ، مما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولاخطر على قلب بشر، وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، ورضوابها ، واطمأنوا إليها ، من الأنكال ، والسلاسل . والأغلال ، وضروب الخزي والنكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين

ولا مطمع فى إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولاسبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب ، وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه، ومال، ووطن فالأولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « اَللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ »

والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح ، لأنه أجلب للمحبة . وغلبة الخوف قبل الموت أصلح ، لأنه أحرق لنار الشهوات ، وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [2] « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ » وقال تعالى : أنا عند ظن عبدي بي . فليظن بي ماشاء . ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة ، قال لابنه :يابني، حدثني بالرخص ، واذكر لي الرجاء ، حتى ألقى الله على حسن الظن به . وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة ، واشتد جزعه ، جمع العلماء حوله يرجّونه . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لابنه عند الموت : اذكر لي الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن

والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ،أن حببني إلى عبادي. فقال بماذا؟قال بأن تذكرهم آلائي ونعمائي

فإذاً غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة ،وبإخراج حب الدنيا

---

(١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ـ الحديث: الترمذى من حديث معاذ وتقدم فى الاذكار والدعوات
(٢) حديث لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه: مسلم من حديث جابر وقد تقدم

من القلب ،حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أباسليمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ، فقال الآن أفلتّ . فلما أصبح سأل عن حاله ، فقيل له إنه مات البارحة

بيان

الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ماذكرناه في دواء الصبر ، وشرحناه في كتاب الصبر والشكر ،هو كاف في هذا الغرض . لأن الصبر لايمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء .لأن أول مقامات الدين اليقينُ الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، والجنة ، والنار . وهذا اليقين بالضرورة يهيّج الخوف من النار ، والرجاء للجنة . والرجاء والخوف يقويان على الصبر . فإن الجنة قد حفت بالمكاره ، فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ،والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف . ولذلك قال علي كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات . ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة ، والتجرد لذكر الله تعالى ، والفكر فيه على الدوام . ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة . ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ، ويتبعها مقام الرضا ، والتوكل ، وسائر المقامات . فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين . وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا . ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولامقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب ، والثقة بعنايته ، وهو التوكل .فإذاً فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول:

الخوف يحصل بطريقين مختلفين . أحدهما أعلى من الآخر . ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت ، فدخل عليه سبع أوحية، ربما كان لايخاف، وربما مدّ اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها

ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل ، خاف من الحية وهرب منها . فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ، ويحتال في الهرب منها ، قام معه ، وغلب عليه الخوف ، ووافقه في الهرب . فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ، وسمها ، وخاصيتها ، وسطوة السبع ، وبطشه ، وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمان بمجرد التقليد، لأنه يحسن الظن بأبيه، ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه. فيعلم أن السبع مخوف، ولا يعرف وجهه

وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين . أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه . فأما الخوف منه ، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة ، والخوف، والحذر ، المطلعين على سر قوله تعالى(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [1])وقوله عز وجل (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [2])

وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير ، والوعظ ، وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ، ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم . فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير .

وأما الثاني وهو الأعلى ، فأن يكون الله هو المخوف ، أعني أن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى ، خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي . وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [3]) ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد ، يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة ،فلاجرم يضعف ويزول على قرب . حتى أن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية ، فينظر إليه ويغتر به ، فيتجرأ على أخذها تقليدا له ، كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه . والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار

(١) آل عمران ٢٨ (٢) آل عمران : ١٠٢ (٣) فاطر : ٢٨

فإذاً من ارتقى إلى ذروة المعرفة ، وعرف الله تعالى ، خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف . كما أن من عرف السبع ، ورأى نفسه واقعا في مخالبه ؛ لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام . خفني كما تخاف السبع الضاري . ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ، ومعرفة الوقوع في مخالبه ، فلا يحتاج إلى حيلة سواه . فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل مايشاء ولا يبالي ، ويحكم مايريد ولا يخاف ، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة . بل صفته ما ترجمه قوله تعالى . هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة، فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصيَ بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة، والشهوة، والقدرة على قضاء الشهوة، كان الفعل واقعا بها بالضرورة فإن كان أبعده لأنه عصاه، فلم حمله على المعصية. هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية ، أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد، بل قضى عليه في الأزل

وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال [1] « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى قَالَ نَعَمْ قَالَ أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً » قال صلى الله عليه وسلم « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »

فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية ، فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر . ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع، فهو من عموم

---

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر

المؤمنين . ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة ، وقوع الصبي الضعيف فى مخالب السبع . والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفترسه ، وذلك بحسب مايتفق . ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمي اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا . والواقع فى مخالب السبع لوكملت معرفته لكان لايخاف السبع ، لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك . فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته . فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله

فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب ، وخلق لكل واحد أهلا ، يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ماخلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاؤا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاؤا أم أبوا . فلا يرى أحد نفسه فى ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة . فهذه مخاوف العارفين بسر القدر . فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة ، والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم [1] فهو سيد الأولين والآخرين ، [2] وكان أشد الناس خوفا ، حتى روي [3] أنه كان يصلى على طفل ، ففى رواية أنه سمع فى دعائه يقول « اللَّهُمَّ قِهِ عَذَابَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ » وفى رواية ثانية [4] أنه سمع قائلا يقول : هنيئا لك

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين : مسلم من حديث أبى هريرة أنا سيد ولد آدم ولا فخر ـ الحديث :

(٢) حديث كان اشد الناس خوفا : تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله انى لأخشاكم لله وقوله والله انى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

(٣) حديث انه كان يصلى على طفل فسمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار : الطبرانى فى الأوسط من حديث انس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي اوصبية وقال لوكان احد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبى واختلف فى اسناده فرواه فى الكبير من حديث ابى ايوب ان صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوأفلت احد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبى

(٤) حديث انه سمع قائلة تقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك ـ الحديث :

عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « مَا يُدْرِيكَ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَاللهِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَمَا أَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً لاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يَنْقَصُ مِنْهُمْ » وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة [1] عثمان بن مظعون ، وكان من المهاجرين الأولين ، لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة . فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكى أحدا بعد عثمان

وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي الذي ولدني . قال فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه .

وروي في حديث آخر ، عن [2] رجل من أهل الصفة استشهد ، فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ، هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتلت في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لاَ يَضُرُّهُ » وفي حديث آخر ، أنه [3] دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل ، فسمع امرأة تقول : هنيئا لك الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَذِهِ الْمُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللهِ تَعَالَى ؟ » فقال المريض : هي أمي يا رسول الله . فقال « وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّ فُلاَنًا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لاَ يُغْنِيهِ »

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول [4] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ

مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة ـ الحديث : وليس فيه فغضب وقد تقدم

(١) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت ام سلمة هنيئا لك الجنة ـ الحديث : البخاري من حديث ام العلاء الانصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث : وورد ان التي قالت ذلك ام خارجة بن زيد ولم اجد فيه ذكر ام سلمة

(٢) حديث ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة ـ الحديث : أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ ان أمه قالت هنيئا لك يا بني الجنة ورواه البيهقي في الشعب الا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذي الا أنه قال ان رجلا قال له ابشر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف

(٣) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة ـ الحديث : تقدم أيضا

(٤) حديث شيبتني هود وأخواتها ـ الحديث : الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع

وَأَخَوَاتُهَا سُورَةُ الْوَاقِعَةِ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد ، كقوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ [١]) (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [٢]) (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ [٣]) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ماأشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها

وفى سورة الواقعة (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ [٤]) أى جف القلم بما هو كائن ، وتمت السابقة ، حتى نزلت الواقعة ، إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا

وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ [٥])

وفى عم يتساءلون (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ [٦]) الآية ، وقوله تعالى (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [٧])

والقرءان من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر . ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [٨]) لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه قوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ [٩]) وقوله تعالى (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ [١٠]) وقوله تعالى (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ [١١]) وقوله عز وجل (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ [١٢]) الآية وقوله (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [١٣]) وقوله تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا [١٤]) الآيتين وقوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [١٥]) الآية وقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [١٦]) الآية وقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ [١٧]) الآية وقوله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [١٨]) الآيتين وقوله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ [١٩])

---

(١) هود : ٦٠ (٢) هود : ٦٨ (٣) هود : ٩٥ (٤) الواقعة : ٢ ، ٣ (٥) التكوير : ١٢ - ١٤
(٦) النبأ : ٤٠ (٧) النبأ : ٣٨ (٨) طه : ٨٢ (٩) القصص : ٦٧ (١٠) الأحزاب : ٨ (١١) الرحمن : ٣١
(١٢) الأعراف : ٩٩ (١٣) هود : ١٠٢ (١٤) مريم : ٨٥ (١٥) مريم : ٧١ (١٦) فصلت : ٤٠
(١٧) الشورى : ٢٠ (١٨) الزلزال : ٧ (١٩) الفرقان : ٢٣

الآية ،وكذلك قوله تعالى (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ [١]) إلى آخر السورة ، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران

وإنما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم ، لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، حتى روي [١] أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ! وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب ، وأنه لاوقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ، ومكرا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر ، وما وفّيا بقولهما

كما أن ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق ، قال حسبي الله . وكانت هذه من الدعوات العظام ، فامتحن وعورض بجبريل في الهواء ، حتى قال ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله . فأخبر الله تعالى عنه فقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [٢]) أي بموجب قوله حسبي الله

وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [٣]) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة ؛ إذ لم يأمن مكر الله ،والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل (لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى [٤])

ولما ضعفت شوكة المسلمين [٢] يوم بدر ، قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ »فقال أبو بكر رضي الله عنه : دع عنك مناشدتك ربك ، فإنه واف لك بما وعدك . فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله ، وهو أتم

---

(١) حديث انه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله اليهما لم تبكيان ـ الحديث : ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ورويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف

(٢) حديث قال يوم بدر اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك : البخاري من حديث ابن عباس بلفظ اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم ـ الحديث :

---

[١] العصر : ١ ، ٢ [٢] النجم : ٣٧ [٣] طه : ٤٥ ، ٤٦ [٤] طه : ٦٨

، لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر . وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى .

ومن عرف حقيقة المعرفة ، وقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور ، عظم خوفه لامحالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [1]) وقال (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ [2]) الآية ، فوض الأمر إلى المشيئة ، وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات ، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ، ولا حدس ؛ ولا حسبان ، فضلا عن التحقيق والاستيقان

وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالى بك إن أهلكك ، فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ، ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [3]) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ [4]) الآية

فكيف لا يخاف ما حق من القول فى الأزل ، ولا يطمع فى تداركه . ولو كان الأمر آنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه ، واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح . فمن يسرت له أسباب الشر ، وحيل بينه وبين أسباب الخير ، وأحكمت علاقته من الدنيا ، فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة . إذ كل ميسر لما خلق له . وإن كانت الخيرات كلها ميسرة ، والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا ، وبظاهره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف ، لو كان الدوام على ذلك موثوقا به . ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران

---

(١) المائدة : ١١٦ (٢) المائدة : ١١٨ (٣) السجدة : ١٣ (٤) هود : ١١٩

الخوف إشمالا ، ولا يمكنها من الانطفاء . وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها . وقد قال مقلب القلوب عز وجل (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [1])

فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن . ولولا أن الله لطف بعباده العارفين ، إذ روح قلوبهم بروح الرجاء ، لاحترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله ، وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس ، وتقطعت القلوب ، من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة ، فمات ، لم أقطع له بالتوحيد لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت على الإسلام عند باب الحجرة ؛ لاخترت الموت على الإسلام ، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار .

وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة ، وعند كل حركة . وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [2])

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء ، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك . فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتني الوفاة ، فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني مت على التوحيد ، فخذ جميع ما أملكه ، فاشتري به لوزا وسكرا ، وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت . وإن مت على غير التوحيد . فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ، ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة ، لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة . فرأى علامة التوحيد عند موته ، فاشترى السكر واللوز وفرقه

(١) المعارج : ٢٨ (٢) المؤمنون : ٦٠

وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد كأن فى وسطى زنارا ، أخاف أن يذهب بى إلى البيعة ، وبيت النار ، حتى أدخل المسجد ، فينقطع عنى الزنار ، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصي ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروي فى أخبار الأنبياء ، أن نبيا شكا إلى الله تعالى الجوع ، والقمل ، والعري سنين . وكان لباسه الصوف . فأوحى الله تعالى إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى ، حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب ، فاعصمنى من الكفر

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لايخافه الضعفاء !

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق ، حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . وما عنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان ، بل المراد به مايجتمع مع أصل الإيمان ، فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة . قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وفى لفظ آخر « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ »

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لايخلو عن شىء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج . ومن الذى يخلو عن هذه المعانى ؟ بل صارت هذه الأمور مألوفة بين

---

(١) حديث أربع من كن فيه فهومنافق ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم فى قواعد العقائد

الناس معتادة ولسي كونها منكرا بالكلية . بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ؟ حتى قال [١] حذيفة رضي الله عنه . إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا ، إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات . وكان [٢] أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق فى أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر.

وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتى مثله ، وأن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل : من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك

وقال [٣] رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروي أنه [٤] سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ، أكنت تتكلم بما تكلمت به ؟ قال لا . قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأشد من ذلك ماروي [٥] أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون فى شيء من شأنه . فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه . فقال تكلموا فيما كنتم تقولون . فسكتوا . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول إنه يأتى على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ، ويأتى عليه ساعة

---

(١) حديث حذيفة ان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا الحديث : أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم فى قواعد العقائد

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر الحديث : البخارى من حديث أنس وأحمد والبزار من حديث أبى سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح اسناده وتقدم فى التوبة

(٣) حديث قال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون ـ الحديث : رواه أحمد والطبرانى وقد تقدم فى قواعد العقائد

(٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ـ الحديث : تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج

(٥) حديث ان نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث : لم أجد له أصلا

يمتلىء بالنفاق حتى لايكون للإيمان فيه مغرز إبرة

فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه ، منها البدع ، ومنها المعاصى ، ومنها النفاق . ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك ؟ وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق : وقال بعضهم لبعض العارفين . إنى أخاف على نفسى النفاق ، فقال لوكنت منافقا لما خفت النفاق . فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة ، خائفا منهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لاَ يَدْرِى مَا اللهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِىَ لاَ يَدْرِى مَا اللهُ قَاضٍ فِيهِ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلاَّ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ » والله المستعان

بيان

معنى سوء الخاتمة

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى الخاتمة

فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين ، إحداهما أعظم من الأخرى

فأما الرتبة العظيمة الهائلة ، فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ماغلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد

والثانية وهي دونها ، أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا ، وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه ، حتى لايبقى فى تلك الحالة متسع لغيره ، فيتفق قبض روحه فى تلك الحال ، فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا ، وصارفا وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب ، إذ نار الله الموقدة لاتأخذ إلا المحجوبين عنه . فأما المؤمن السليم قلبه عن حب

---

(١) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قدمضى ـ الحديث : البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقدتقدم فى ذم الدنيا ذكره ابن المبارك فى كتابه الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس

الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار : جُزْ يامؤمن ، فإن نورك قد أطفأ لهبي
فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر ، لأن المرء يموت على ماعاش
عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه . إذ
لاتصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح ، وقد بطلت الجوارح بالموت ، فبطلت الأعمال
فلا مطمع فى عمل ، ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك . وعند ذلك تعظم الحسرة
إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة ، وتأكد
ذلك بالأعمال الصالحة ، فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت ، فإن
كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال، أخرجه من النار فى زمان أقرب . وإن كان أقل من ذلك، طال
مكثه فى النار . ولو لم يكن إلا مثقال حبة ، فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين

فإن قلت : فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فما باله يؤخر إلى يوم
القيامة ، ويمهل طول هذه المدة

فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى ، وعن نور
القرءان ونور الإيمان . بل الصحيح عند ذوى الأبصار ماصحت به الأخبار ، وهو أن [1]
القبر إما حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة . [2] وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب
سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان
قد شقي بسوء الخاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات . فيكون [3] سؤال
منكر ونكير عند الوضع فى القبر ، [4] والتعذيب بعده، ثم [5] المناقشة فى الحساب، [6] والافتضاح

---

(١) حديث القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الاذكار

(٢) حديث انه يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم : لم أجد له أصلا

(٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر : تقدم فى قواعد العقائد

(٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه

(٥) حديث المناقشة فى الحساب : تقدم فيه

(٦) حديث الافتضاح على ملأ الأشهاد فى القيامة : أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من انتفى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رؤس الاشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر

على ملأ من الأشهاد فى القيامة ، ثم بعد ذلك [1] خطر الصراط ، [2] وهوان الزبانية إلى آخر ماوردت به الأخبار . فلا يزال الشقي مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب ، وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته

ولا تظنن أن محل الإيمان يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتجتمع الأجزاءالمتفرقة ،وتعاد إليها الروح التى هى محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة ، إما فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية

فإن قلت : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها . أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين .

أحدهما: يتصور مع تمام الورع والزهد،وتمام الصلاح فى الأعمال، كالمبتدع الزاهد،فإن عاقبته مخطرة جدا ،وإن كانت أعماله صالحة . ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة،فإن بيان ذلك يطول القول فيه . بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل فى ذات الله،وصفاته،وأفعاله خلاف الحق،فيعتقده على خلاف ماهو عليه ، إما برأيه،ومعقوله،ونظره الذى به يجادل الخصم،وعليه يعول، وبه يغتر،وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله .فإذا قرب الموت،وظهرت له ناصية ملك الموت،واضطرب القلب بما فيه ، ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ومبادىء سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور . فمهما بطل عنده ما كان اعتقده ، وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة ، لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد ،وعقله الناقص . بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة ، وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته ، أو لشكه فيها .

---

(١) حديث خطر الصراط: تقدم فى قواعد العقائد

(٢) حديث هوان الزبانية :الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع الى فسقة حملة القرآن منها الى عبدة الاوثان والنيران قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم معضلا فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب

فإن اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة ، قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه. فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ⁽¹⁾) وبقوله عز وجل (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ⁽²⁾) . وكما أنه قد ينكشف فى النوم ماسيكون فى المستقبل ، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب ، فكذلك ينكشف فى سكرات الموت بعض الأمور . إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع مافى اللوح المحفوظ ، لتنكشف له الأمور على ماهي عليه . فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك فى بقية الاعتقادات

وكل من اعتقد فى الله تعالى ، وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به ، إما تقليدا ؛ وإما نظرا بالرأى والمعقول ، فهو فى هذا الخطر . والزهدُ والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر . بل لاينجى منه إلا الاعتقاد الحق . والبُله بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا ، كالأعراب ، والسوادية ، وسائر العوام ، الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ، ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ، ولاصغوْا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ⁽¹⁾ « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ »

ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام ، والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا ، وبكل ماجاء من الظواهر ، مع اعتقاده نفي التشبيه : ومنعوهم عن الخوض فى التأويل ، لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كؤودة ، ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما أُلقى إليها فى مبدأ النشأة آلفة ، وبه متعلقة ، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى أول الأمر . ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة ، وعليها

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله : البزار من حديث أنس وقد تقدم

⁽¹⁾ الزمر : ٤٧ ⁽²⁾ الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

مقبلة ، وشهوات الدنيا بخنقها آخذة ، وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول ، مع تفاوت الناس في قرائحهم، واختلافهم في طبائعهم، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ، انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم . فكانت سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم

ولكن الآن قد استرخي العنان ، وفشا الهذيان . ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان ، وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ، ولتعلمن نبأه بعد حين . وينبغى أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء مايأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه ، وخاض فى البحث فقد تعرض لهذا الخطر . ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الأمواج ، يرميه موج إلى موج ؛ فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب

وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم ، إما مع الأدلة التى حرروها فى تعصباتهم ، أو دون الأدلة ، فإنه إن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين ، وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله . مغتر بعقله الناقص، وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعقول ، إلى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وأنى يتيسر ! وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله ، فلم يخوضوا فى هذا الفضول . فهذا أحد الأسباب المخطرة فى سوء الخاتمة

وأما السبب الثانى فهو ضعف الإيمان فى الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوي حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب

موضع لحب الله تعالى، إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس، والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات، حتى يظلم القلب ويقسو ويسود، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفىء مافيه من نور الإيمان على ضعفه، حتى يصير طبعا ورينا. فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب، أعنى حب الله ضعفا، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا، وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب. كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا، إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا. فإن اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة، فقد ختم له بالسوء، وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا، والركون إليها، والفرح بأسبابها، مع ضعف الإيمان، الموجب لضعف حب الله تعالى. فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا، وإن كان يحب الدنيا أيضا، فهو أبعد عن هذا الخطر

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى. إذ لا يحبه إلا من عرفه. ولهذا قال تعالى (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ [1])

فإذاً كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله، وظهور بغض فعل الله بقلبه، فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه، فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال

وأما الذى يتوفى على الحب، فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح

(١) التوبة : ٢٤

والسرور بمجرد القدوم ، فضلا عمـــا يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى ، وليست مقتضية للخلود فى النار ، فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصى وإن قوي الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى . وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب ، بكثرة الإلف والعادة . وجميع ماألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات ، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى ، غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، ومعصية من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى، فالذي لايقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة ، فهو أبعد عن هذا الخطر . والذى لم يقارف ذنبا أصلا ، فهو بعيد جدا عن هذا الخطر . والذي غلبت عليه المعاصى ، وكانت أكثر من طاعاته ، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات ، فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا

ونعرف هذا بمثال . وهو أنه لايخفى عليك أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، حتى أنه لايرى إلا مايماثل مشاهداته فى اليقظة ، وحتى أن المراهق الذى يحتلم لايرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة لمارأى عند الاحتلام صورة الوقاع . ثم لايخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه ، يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة . والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر فى حالة النوم ماحصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف ،أو بسبب آخر من الأسباب

والموت شبيه النوم ، ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المألوف، وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الإلف . فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق . فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه ، فيكون ذلك سبب سوء خاتمته

وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها

وكما أن مايخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى، نعرف بعضها ولا نعرف بعضها. كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشىء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة، وإما بالمضادة، وإما بالمقارنة، بأن يكون قد ورد على الحس منه

أما بالمشابهة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر

وأما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما

وأما بالمقارنة: فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان، فيتذكر ذلك الإنسان

وقد ينتقل الخاطر من شىء إلى شىء، ولا يدرى وجه مناسبته له. وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل أن ينتقل من شىء إلى شىء ثان، ومنه إلى شىء ثالث، ثم ينسى الثانى، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة، وبين الثانى والأول مناسبة. فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت

فعلى هذا، والعلم عند الله، من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها، ويبل أصبعه التى لها عادة بالكستبان، ويأخذ الإزار من فوقه، ويقدره ويشبره وكأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمدّ يده إلى المقراض

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصى والشهوات، فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر فى فطامه نفسه عنها؛ وفى قمع الشهوات عن القلب. فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار، ويكون طول المواظبة على الخير، وتخلية الفكر عن الشر، عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على مامات عليه

ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة، ستة، أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت

وقال بعض العارفين من السلف. العرش جوهرة تتلألأ نورا؛ فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله فى العرش على الصورة التى كان عليها، فإذا كان فى سكرات الموت كشف له صورته من العرش، فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم

القيامة، فيرى أحوال نفسه، فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف . وما ذكره صحيح

وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك . فإن النائم يدرك ما يكون فى المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة

فإذاً رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ، ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا ، وإن كان لطول الإلف فيه تأثير . فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى فى المنام إلا أحوال الصالحين ، وأحوال الطاعات والعبادات ، عسر عليه ذلك، وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر فى النوم لما غلب فى اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذى رحمة الله عليه ، يصف لى وجوب حسن أدب المريد لشيخه ، وأن لا يكون فى قلبه إنكار لكل ما يقوله ، ولا فى لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيت لشيخى أبى القاسم الكرمانى مناماً لى، وقلت رأيتك قلت لى كذا ، فقلت لم ذاك ؟ قال فهجرنى شهرا ولم يكلمنى وقال : لولا أنه كان فى باطنك تجويز المطالبة ، وإنكار ما أقوله لك ، لما جرى ذلك على لسانك فى النوم . وهو كما قال . إذ قلما يرى الإنسان فى منامه خلاف ما يغلب فى اليقظة على قلبه . فهذا هو القدر الذى نسمح بذكره فى علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل فى علم المكاشفة

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجى جميع العمر فى طاعة الله من غير معصية . فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير ، فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين ، حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ، ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك

وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم فى النفس الأخير الذى عليه خروج الروح ، وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول ، إنى لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكنى أعجب ممن نجا كيف نجا .

ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه ، وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ؟ وكان الثوري يوما يبكي ، فقيل له علام تبكي ؟ فقال بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبكي على الإسلام

وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة فى حقه أبعد من الهلاك . وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة وأمواجُ الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر . وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فَوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ » ، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف

وقال سهل : رأيت كأني أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي ، فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا ؟ قالوا سوء الخاتمة . ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها

أما الموت فجأة ، فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب ، والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة ، أو بنور المعرفة

وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج حب الدنيا ، والأهل ، والمال ، والولد ، وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله ، وطلبا لمرضاته ، وبائعا دنياه بآخرته ، وراضيا بالبيع الذى بايعه الله به ، إذ قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [1]) والبائع راغب عن المبيع لا محالة ، ويخرج حبه عن القلب ، ويجرد حب العوض المطلوب فى قلبه . ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب فى بعض الأحوال ، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصف القتال سبب لزهوق الروح

---

(١) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة ـ الحديث . تقدم

---

(١) التوبة : ١١١

على مثل هذه الحالة . هذا [1] فيمن ليس يقصد الغلبة ،والغنيمة، وحسن الصيت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل فى المعركة ، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها ، فاشتغل بالاستعداد لها ،فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصى ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضا يؤثر فى قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك

وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك . فراقب قلبك فى كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة ، فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك. هذا مادمت فى يقظتك . وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك . لست أقول على لسانك ،فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه، وأنه لا يغلب فى النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك فى نومك .والموت والبعث شبيه النوم واليقظة . فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه فى يقظته، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه فى نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه . وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك ، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك . وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ، إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين و نور البصيرة

وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين ، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك فى خطر عظيم ،فكيف إذا لم تفعل! والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون

---

[1] حديث المقتول فى الحرب اذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري ان رجلا قال يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وفى رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء وفى رواية يقاتل غضبا

كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

واعلم أن ذلك لايتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ، ومسكن ، والباقى كله فضول . والضرورة من المطعم مايقيم صلبك ، ويسد رمقك فينبغى أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك فى قضاء حاجتك ، إذ لافرق بين إدخال الطعام فى البطن وإخراجه ؛ فهما ضرورتان فى الجبلة . وكما لايكون قضاء الحاجة من همتك التى يشتغل بها قلبك ، فلا ينبغى أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك مايدخل بطنك ، فقيمتك مايخرج من بطنك

وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى ، كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر فى ثلاثة أمور من مأكولك : فى وقته ، وقدره ، وجنسه

أما الوقت : فأقله أن يكتفي فى اليوم والليلة مرة واحدة ، فيواظب على الصوم

وأما قدره فبأن لايزيد على ثلث البطن . وأما جنسه فأن لايطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق . فإن قدرت على هذه الثلاث ، وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات ، وأمكنك أن لاتأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز ولا يفى بجميع الشهوات

وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد ، وستر العورة . فكل مادفع البرد عن رأسك ، ولو قلنسوة بدانق ، فطلبك غيره فضول منك ، يضيع فيه زمانك ، ويلزمك الشغل الدائم ، والعناء القائم فى تحصيله بالكسب مرة ، والطمع أخرى ، من الحرام والشبهة وقس بهذا ماتدفع به الحر والبرد عن بدنك ، فكل ماحصل مقصود اللباس إن لم تكتف به فى خساسة قدره وجنسه ، لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لايملأ بطنه إلا التراب

وكذلك المسكن ، إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا . والأرض مستقرا . فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد . فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك ، وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك . ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف ، فقد تورطت فى مهواة يبعد رقيك منها

وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله ، وقدرت على التزود لآخرتك ، والاستعداد لخاتمتك . وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك، ولم يبال الله في أي واد أهلكك . فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك

واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير . فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك ، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ، ولم تفارقك حسرتك وندامتك . فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك ، إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك ، فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، وعملهم ومكانهم عند الله تعالى ، لم يكن دون عقلك ، وعملك ، ومكانك . فتأمل مع كلال بصيرتك، وعمش عين قلبك في أحوالهم ، لم اشتد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق ، وبعضهم يدهش ، وبعضهم يسقط مغشيا عليه ، وبعضهم يخر ميتا إلى الأرض . ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك ، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون

بيان

أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت[١] عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة ، يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفا من عذاب الله[٢] وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق وقال تعالى (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا[١])

---

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث قرأ في سورة الحاقة فصعق المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما فصعق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم

---

(١) الأعراف : ١٤٣

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق.

وروي أنه عليه السلام [2] كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَاجَاءَنِي جِبْرِيلُ قَطُّ إِلاَّ وَهُوَ يَرْعَدُ فَرَقاً مِنَ الْجَبَّارِ »

وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا يارب ما نأمن مكرك . فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكري . وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت

وعن [4] أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مَالِي لاَ أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ ؟ » فقال جبريل . ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار ، مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها

وقال [5] ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل. فقال « يَاابْنَ عُمَرَ مَالَكَ لاَ تَأْكُلُ ؟ »

---

(١) حديث انه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق : البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه فى صورته فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ فغشى عليه وفى الصحيحين عن عائشة رأى جبريل فى صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستمائة جناح

(٢) حديث كان إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل : أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم فى كتاب السماع

(٣) حديث ماجاءنى جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار : لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله ـ الحديث : وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج إلى معرفته

(٤) حديث أنس انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لا أرى ميكائيل يضحك فقال ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا وورد ذلك أيضا فى حق اسرافيل رواه البيهقى فى الشعب وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين

(٥) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل ـ الحديث : ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقى هذا اسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف

فقلت يارسول الله لا أشتهيه . فقال « لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم » قال فوالله مابرحنا ولا قمنا حتى نزلت(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[1]) قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ الْمَالِ وَلَا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ مَنْ كَنَزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَانِيَةً فَإِنَّ الْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ أَلَا وَإِنِّي لَا أَكْنِزُ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَا أَخْبَأُ رِزْقًا لِغَدٍ »

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل ، خوفا من ربه

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه ،حتى نبت المرعى من دموعه ، وحتى غطى رأسه ، فنودي ياداود أجائع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقى ، أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة . فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي . فصارت خطيئته في كفه مكتوبة . فكان لا يبسط كفه لطعام ولا الشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته . قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ، فإذا تناوله أبصر خطيئته ، فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه

ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات ، حياء من الله عز وجل . وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها . وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليّ روحي . سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني . فبؤسا للقانطين من رحمتك

وقال الفضيل : بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم ، فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع ، فقال ارجعوا لا أريدكم . إنما أريد كل بكاء على خطيئته ، فلا يستقبلني إلا بالبكاء . ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يعاتب

---

[1] العنكبوت : ٦٠

فى كثرة البكاء فيقول : دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء ، قبل تخريق العظام واشتعال الحشا ، وقبل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون

وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته . فقال إلهى بح صوتى فى صفاء أصوات الصديقين . وروي أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه ، واشتد غمه ، فقال يارب أما ترحم بكائى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ! فقال : إلهى وسيدى ، كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه ، وسكن هبوب الريح ، وأظلنى الطير على رأسى ، وأنست الوحوش إلى محرابى ! إلهى وسيدى ، فما هذه الوحشة التى بينى و بينك ! فأوحى الله تعالى إليه ياداود ذلك أنس الطاعة ، وهذه وحشة المعصية . ياداود ، آدم خَلْقٌ من خلقى ، خلقته بيدى ، ونفخت فيه من روحى ، وأسجدت له ملائكتى ، وألبسته ثوب كرامتى ، وتوجته بتاج وقارى . وشكا لى الوحدة فزوجته حواء أمتى ، وأسكنته جنتى ، عصانى ، فطردته عن جوارى عريانا ذليلا . ياداود اسمع منى ، والحقَّ أقول ، أطعتنا فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك

وقال يحيى بن أبى كثير . بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يقرب النساء . فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية . فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض ، والآكام ، والجبال ، والبرارى ، والصوامع ، والبيع ، فينادى فيها . ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت . قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام ، وتأتى السباع من الغياض ، وتأتى الهوام من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم . ويأتى داود حتى يرقى المنبر ، ويحيط به بنو إسرائيل ، وكل صنف على حدته محيطون به ، وسليمان عليه السلام قائم على رأسه . فيأخذ فى الثناء على ربه ، فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار ، فتموت الهوام ، وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ فى أهوال القيامة ، وفى النياحة على نفسه ، فيموت من كل نوع طائفة . فإذا رأى سليمان كثرة الموتى ، قال يا أبتاه . قد مزقت المستمعين كل ممزق ، وماتت

طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام . فيأخذ في الدعاء . فبينما هو كذلك ، إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك ، قال فيخر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ماأصابه ، أتى بسرير فحمله عليه ، ثم أمر مناديا ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله ، فإن الذين كانوا معه قدقتلهم ذكر الجنة والنار . فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يامن قتله ذكر النار يامن قتله خوف الله . ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه، ودخل بيت عبادته، وأغلق بابه ، ويقول ياإله داود ، أغضبان أنت على داود ؟ ولا يزال يناجي ربه . فيأتي سليمان ويقعد على الباب ، ويستأذن ، ثم يدخل ومعه قرص من شعير ، فيقول ياأبتاه تقو بهذا على ماتريد فيأكل من ذلك القرص ماشاء الله ، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم

وقال يزيد الرقاشي : خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم . فخرج في أربعين ألفا ، فمات منهم ثلاثون ألفا ، وما رجع إلا في عشرة آلاف .قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب ، قعدتا على صدره وعلى رجليه ، مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل ، وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبويه . فمر بصبيان يلعبون ، فقالوا له يايحيى هلم بنا نلعب . فقال إني لم أخلق للعب . قال فأتى أبويه ، فسألهما أن يدرعاه الشعر ، ففعلا . فرجع إلى بيت المقدس ، وكان يخدمه نهارا ، ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب . فخرج أبواه في طلبه ، فأدركاه على بحيرة الأردن ، قد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه ، وهو يقول : وعزتك وجلالك لاأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك . فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ، ويشرب من ذلك الماء ، ففعل وكفر عن يمينه ، فمدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه ،

فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه ، وبدت أضراسه للناظرين . فقالت له أمه يابني لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين ؟ فأذن لها . فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلي بكى ، فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال . اللهم هذه دموعي ، وهذه أمي ، وأنا عبدك ، وأنت أرحم الراحمين . فقال له زكريا يوما : يابني ، إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقر عيناي بك . فقال يحي . ياأبت . إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلى كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام . يابني فابك

وقال المسيح عليه السلام . معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة : ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم ، إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل

وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له . ربك يقرئك السلام ويقول . هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول ياجبريل ، إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي .

فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام ، فدونك والتأمل فيها ، فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى كل عباد الله المقربين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

بيان

أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر . ليتني مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا

وقال أبو ذر رضي الله عنه ودِدت لو أني شجرة تعضد . وكذلك قال طلحة

وقال عثمان رضي الله عنه . وددت أني إذا مت لم أبعث . وقالت عائشة رضي الله عنها : وددت أني كنت نسيا منسيا

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرءان مغشيا عليه ، فكان يعاد أياما ، وأخذ يوما تبنة من الأرض ؛ فقال . ياليتني كنت هذه التبنة ،

ياليتني لم أك شيئا مذكورا ،ياليتني كنت نسيا منسيا ، ياليتني لم تلدني أمي . وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع مايريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون

ولما قرأ عمر رضي الله عنه (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ[1]) وانتهى إلى قوله تعالى (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ[2]) خر مغشيا عليه . ومر يوما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة (وَالطُّورِ[3]) فوقف يستمع ،فلما بلغ قوله تعالى(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ[4]) نزل عن حماره، واسند إلى حائط ، ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ، ولا يدرون ما مرضه . وقال علي كرم الله وجهه ، وقد سلم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئا يشبههم : لقد كانوا يصبحون شعثا ، صفرا ، غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله ، تمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم . والله فكأني بالقوم باتوا غافلين . ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي ، فيأكلون لحمي ، ويحسون مرقي . وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه . فيقول له أهله . ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول . أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا ، لما نرى من خوفه وجزعه . وقرأ مضر القارىء يوما (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ[5]) الآية، فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لا عصيتك جهدي أبدا ،فأعني بتوفيقك على طاعتك : وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرءان لشدة خوفه . ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح صيحة فما يعقل أياما، حتى أتى عليه رجل من خثعم ،فقرأ عليه(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا[6])

---

(1) التكوير : ١ (2) التكوير : ١٠ (3) الطور : ١ (4) الطور : ٧ (5) الجاثية : ٢٩ (6) مريم : ٨٥ ، ٨٦

فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد علي القول أيها القارئ. فأعادها عليه ،فشهق شهقة فلحق بالآخرة،وقرئ عند يحي البكاء (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ [1]) فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت ، إذ أنا بجويرية متعبدة ، متعلقة بأستار الكعبة ، وهي تقول . يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ! يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ! وتبكي . فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر . قال مالك . فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول . ثكلت مالكا أمه

وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة والناس يدعون ، وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب ، قبض على لحيته ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال . واسوأتاه منك وإن غفرت. ثم انقلب مع الناس . وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال . قلوبهم بالخوف قرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه ، وهو جالس مع قوم فى مجلس ، فقال له الحسن . يافتى ، هل مررت بالصراط ؟ قال لا . قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال لا. قال : فما هذا الضحك ؟قال فما رؤى ذلك الفتي بعدها ضاحكا

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه ، فيقال له لو اطمأننت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة ، كيلا يموتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ، ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده

وقال حاتم الأصم : لاتغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، وقد لقى آدم عليه السلام فيها مالقي. ولاتغتر بكثرة العبادة . فإن ابليس بعد طول تعبده لقي مالقي ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي،ولا تغتر برؤية الصالحين

(١) الأنعام : ٣٠

فلا شخص أكبر منزلة عندالله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه

وقال السرىّ : إنى لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات ، مخافة أن يكون قد اسود وجهى

وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلىّ نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك . وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال . انى اجترأت البارحة على الله ، سألته الجنة . وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها . يابني ، إنى أعرفك صغيرا طيبا ، وكبيرا طيبا . وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع فى ليلك ونهارك . فقال ياأماه ، مايؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع عليّ وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال وعزتى وجلالى لاغفرت لك ؟ . وقال الفضيل إنى لاأغبط نبيا مرسلا ، ولا ملكا مقربا ، ولا عبدا صالحا ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة ؟ إنما أغبط من لم يخلق

وروى [1] أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكى حتى حبسه ذلك فى البيت . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه واعتنقه ، فخرّ ميتا . فقال صلى الله عليه وسلم « جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّ الْفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَتَّتَ كَبِدَهُ »

وروي عن ابن ميسرة ، أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول . ياليت أمى لم تلدنى. فقالت له أمه ياميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال أجل ، ولكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها . وقيل لفرقد السبخى أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بنى اسرائيل . فقال . بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء ، لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه ، فمتن جميعا فى يوم واحد وكان عطاء السلمى من الخائفين ، ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا ، إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له فى مرضه . ألا تشتهى شيئا ؟ فقال إن خوف جهنم لم يدع فى قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه مارفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع ، فسقط فانفتق فى بطنه فتق . وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ . وكان إذا أصابتهم ريح ، أو برق ، أو غلاء طعام قال هذا من أجلي يصيبهم . لومات عطاء لاستراح الناس

---

(١) حديث ان فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه فى البيت ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الخائفين من حديث حذيفة والبيهقى فى الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر

وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام ، وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رءوسهم ، ولصقت جلودهم على عظامهم ، وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين ، وكيف أهان العاصين . فبينما هم يمشون ، إذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه : فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد ، وجبينه يرشح عرقا . فجاءوا بماء فمسحوا وجهه ، فأفاق ، وسألوه عن أمره فقال . إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان

وقال صالح المري . قرأت على رجل من المتعبدين (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا [١]) فصعق ثم أفاق فقال . زدني ياصالح ، فإني أجد غما .فقرأت (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [٢]) فخر ميتا

وروي أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة ، فلما قرأ (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ [٣]) خر مغشيا عليه ، فحمل ميتا

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ، فقال عظني يايزيد . فقال ياأمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت . فبكى ثم قال زدني . قال ياأمير المؤمنين ، ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت . فبكى . ثم قال زدني يايزيد . فقال ياأمير المؤمنين ، ليس بينك وبين الجنة والنار منزل . فخر مغشيا عليه

وقال [(١)] ميمون بن مهران . لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [٤]) صاح سلمان الفارسي ، ووضع يده على رأسه ، وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول . ياابناه ، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا . فصعق داود وسقط مكانه

وقيل مرض سفيان الثوري ، فعرض دليله على طبيب ذمي ، فقال هذا رجل قطع الخوف كبده . ثم جاء وجس عروقه ، ثم قال . ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله

---

(١) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي : لم أقف له على أصل

[١] الاحزاب : ٦٦ [٢] الحج : ٢٢ [٣] المدثر : ٨ [٤] الحجر : ٤٣

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح عليّ بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت يارب على قدر ما أطيق . فسكن قلبي

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه . وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً »

وقال العنبرى : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكى ، ولحيته ترجف . فقال عليكم بالقرءان ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء ، وتضرع واستكانة ، ودعاء كدعاء الغريق . إنما هذا زمان احفظ لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر . ورؤى الفضيل يوما وهو يمشى ، فقيل له إلى أين؟ قال لا أدرى . وكان يمشى والها من الخوف . وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب؟ فقال يا بنى ، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة

وحكي أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى ، فقالوا ما الذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم . قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل

وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته ، قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فاعتقنى

وقال صالح المرى : قدم علينا ابن السماك مرة فقال . أرنى شيئا من بعض عجائب عبّادكم . فذهبت به إلى رجل فى بعض الأحياء فى خُص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا . فقرأت عليه (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [1]) فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر ، فدخلنا عليه ، فقرأت هذه الآية ، فشهق شهقة وخر مغشيا عليه . فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا . فقرأت (ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [2]) فشهق شهقة ، فبدا الدم من منخريه ، وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس . فتركناه على حاله وخرجنا . فأدرته على ستة أنفس ، كل نخرج من عنده ونتركه

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : تقدم فى قواعد العقائد

(١) غافر : ٧١ (٢) ابراهيم : ١٤

مغشيا عليه. ثم أتيت به إلى السابع، فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا فدخلنا، فإذا شيخ فان جالس فى مصلاه، فسلمنا عليه، فلم يشعر بسلامنا. فقلت بصوت عال. ألا إن للخلق غدا مقاما. فقال الشيخ. بين يدي مَن؟ ويحك! ثم بقي مبهوتا فاتحًا فاه، شاخصا بصره، يصيح بصوت له ضعيف، أوه أوه، حتى انقطع ذلك الصوت؛ فقالت امرأته. اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى، وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتا متحيرا، لا يؤدى فرضا، فلما كان بعد ثلاث عقل

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أنه لا يضحك أبداً، ولا ينام مضطجعا، ولا يأكل سمنا أبدا. فما رؤى ضاحكا، ولا مضطجعا، ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله. وقال الحجاج لسعيد بن جبير. بلغنى أنك لم تضحك قط. فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت!. وقال رجل للحسن: ياأبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال بخير. قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألنى عن حالى! ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة، على أي حال يكون؟ قال الرجل على حال شديدة. قال الحسن حالى أشد من حالهم

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه، فسلمت عليه، ثم قامت إلى مسجد فى بيته، فصلت فيه ركعتين، وغلبتها عيناها فرقدت، فاستبكت فى منامها ثم انتبهت، فقالت ياأمير المؤمنين، إنى والله رأيت عجبا. قال وما ذلك؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها، ثم جيء بالصراط فوضع على متنها. فقال هيه. قالت فجيء بعبد الملك بن مروان، فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم. فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك، فحمل عليه. فما مضى إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك، فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى كذلك. فقال عمر هيه قالت ثم جيء بك والله ياأمير المؤمنين، فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خر مغشيا عليه، فقامت إليه، فجعلت تنادى فى أذنه ياأمير المؤمنين إنى رأيتك والله قد نجوت، إنى رأيتك والله قد نجوت. قال وهي تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

ويحكى أن أويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس، ثم يقوم منطلقا، فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه. إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش، فيضطجع ويتقلى

كما تتقلى الحبة فى المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول. طيّر ذكرُ جهنم نوم الخائفين. وقال الحسن البصرى رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ياليتنى كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروي أنه ماضحك أربعين سنة. قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قدقدم لتضرب عنقه . وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها. فإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه. وعوتب فى شدة حزنه وخوفه فقال: مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض مايكره، فمقتنى، فقال اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل فى غير معتمل

وعن ابن السماك قال وعظت يوما فى مجلس، فقام شاب من القوم فقال. ياأبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى أن لانسمع غيرها. قلت وماهي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين، إما فى الجنة أو فى النار. ثم غاب عنى، فتفقدته فى المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه، فأخبرت أنه مريض يعاد. فأتيته أعوده، فقلت ياأخي ماالذى أرى بك؟ فقال ياأبا العباس، ذلك من قولك. لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النـــار. قال ثم مات رحمه الله، فرأيتـه فى المنام، فقلت ياأخى مافعل الله بك؟ قال غفر لى ورحمني وأدخلني الجنة. قلت بماذا؟ قال بالكلمة . فهذه مخاوف الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم. لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب، وكمال المعرفة وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا، وغلبت علينا شقوتنا، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا . فلا قرب الرحيل ينبهنـــا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا. فنسأل الله تعالى أن يتداركنا بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا

ومن العجـــائب أنا إذا أردنا المـال فى الدنيـا زرعنا، وغرسنا، واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنـا، ولانجلس فى بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا! والذى إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا، ينادينا ويقول (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [١])

(١) النجم : ٣٩

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [١]) وَ(يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ [٢]) ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا . فما هـذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدارك بها ويجبرنا. فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا ، فنكون ممن يقول ولا يعمل، ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هـذا، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ماأوردناه ، فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل ، فيكفي ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني

ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ، وكان من خيار العبّاد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ، مايكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى . لما رأيته هالني منظره ، فقلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك فقال ياأخي بماذا أوصيك ؟ إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر ، يخاف أن يغفل فتفترسه السباع ، أو يسهو فتنهشه الهوام ، فهو مذعور القلب وجل ، فهو في المخافة ليله وإن أمن المغترون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولى وتركني . فقلت لو زدتني شيئا عسى ينفعني؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق ، فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ

وماذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام ، فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير ، بل هو تحقيق . فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك ، لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام ، مثل الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب والرياء وغيرها ، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك، عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك ، وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن، قد انكشف لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك، فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

---

(١) فاطر : ٥ (٢) الانفطار : ٦

كتاب الفقر والزهد

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تسبّح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتدكدك من هيبته الجبال . خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال . ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال مااستقبح دون مبادى إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت فى قالب النكال ، وهي متلففة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ، ثم لاتجتزىء معهم بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل تقيّدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال . فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لايعتريها فناء ولا زوال . والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

أما بعد : فإن الدنيا عدوّة لله عزوجل ، بغرورها ضلّ من ضلّ ، وبمكرها زلّ من زلّ فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأسّ القربات . وقد استقصينا مايتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات . فلامطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها

ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات، وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة

ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ، ودرجاتهما، وأقسامهما، وشروطهما، وأحكامهما

ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب ، والزهد فى شطر آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول

الشطر الأول

من الكتاب فى الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني ، وبيان أدب الفقير فى فقره ، وبيان أدبه فى قبوله العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

بيان

حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ماهو محتاج إليه . أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا . وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه ، لم يكن المحتاج فقيرا . وإذا فهمت هذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده . فإن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا ، فليس فى الوجود إلا غني واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ، ليمدوا جودهم بالدوام . وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى (وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ[١]) هذا معنى الفقر مطلقا . ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق ، بل الفقر من المال على الخصوص وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لاينحصر ، لأن حاجاته لاحصر لها ، ومن جملة حاجاته مايتوصل إليه بالمال ، وهو الذى نريد الآن بيانه فقط ، فنقول :

كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذى فقده ، إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه . ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ،ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم ، لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها

الحالة الأولى :وهي العليا ، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه ، مبغضا له ، ومحترزا من شره وشغله ، وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد

الثانية :أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه ، لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب ، مع ما فيه من الرغبة الضعيفة

الرابعة :أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب . وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه ، كالجائع الفاقد للخبز ، والعارى الفاقد للثوب . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا ، كيفما كانت رغبته فى الطلب إما ضعيفة وإما قوية . وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة

فهذه خمسة أحوال ، أعلاها الزهد . والاضطرار إن انضم إليه الزهد ، وتصوّر ذلك ، فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه . ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده . فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ . وإن فقده فكذلك . بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها ، إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء ، فأخذتها وفرقتها من يومها ،فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو ذكرتيني لفعلت

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لا فى يد نفسه ، فلا يفرّق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره .

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني ، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعا

وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى ، وعلى من كثر ماله من العباد . فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به ؟ فهو فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما هو غني عن دخول المال في يده ، لا عن بقائه . فهو إذاً فقير من وجه . وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده ، وعن بقائه في يده ، وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه ، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه ، وليس فاقدا له ليحتاج إلى الدخول في يده . فغناه إلى العموم أميل . فهو إلى الغني الذي هو وصف الله تعالى أقرب . وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات ، لا بقرب المكان

ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا ، بل مستغنيا ، ليبقى الغني اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما ، فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ، ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه ، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق ، والمستغني عنه حر ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق ، فهو محتاج إلى دوام هذا العتق . والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن . فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار . وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين . وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها . والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا ، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره . وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك ، فكذلك لا تزال محجوبا عنه . فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى . والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى . بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب ، وإلى بغضه

واستثقاله ، وكراهة حضوره ، فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه . ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ، ولم يلتفت إليه . فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ، ونقص فيه ، فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر : بل الكمال فى أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة ، فلا يجتمع أيضا بغض وحب فى حالة واحدة

فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل، وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل ، وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود ، فالكمال له مرتقب ، لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله

فالمحب والمبغض كرجلين فى طريقي الحج ، مشغولين بركوب الناقة، وعلفها، وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة ، والآخر مستدبر لها . فهما سيان بالإضافة إلى الحال ، فى أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر ، إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف فى الكعبة ، الملازم لها ، الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة فى الوصول إليها

فلا ينبغى أن تظن أن بغض الدنيا مقصود فى عينه . بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : من زهد فى الدنيا واقتصر عليه ، فقد استعجل الراحة . بل ينبغى أن يشتغل بالآخرة . فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد ، كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج

فإذاً قد ظهر أن الزهد فى الدنيا إن أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها، فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة فى عدمها ، فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى ، والقانع ، والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى . بل الكمال فى حق المال أن يستوي عندك المال والماء . وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر . ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه ، كما أن الماء محتاج إليه . فلا يكون قلبك

مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ، ولا يبغض الماء الكثير . بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة ، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد

فهكذا ينبغي أن يكون المال ، لأن الخبز والماء واحد في الحاجة ، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر . وإذا عرفت الله تعالى ، ووثقت بتدبيره الذي دبّر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لامحالة مادمت حيا ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت ، فخذ الركوة * التي أهديتها لي ، فإن العدوّ يوسوس لي أن اللص قد أخذها . قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية ، قد زاده في الدنيا ماعليه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار

فأقول : كما هربوا من الماء ، على معنى أنهم ماشربوا أكثر من حاجتهم ، ففروا عما وراءه ، ولم يجمعوه في القرب والراوايا يديرونه مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه . لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت[1] خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعها ، وما هربوا منها . إذ كان يستوي عندهم المال ، والماء ، والذهب ، والحجر . وما نقل عنهم من امتناع ، فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال

(١) حديث ان خزائن الارض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها : هذا معروف وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة ولم يلتفت اليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه فما كان يرى أحدا الا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدومه . الحديث: ولهما من حديث جابر لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من مكان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فقلت ان النبي صلى الله عليه وسلم وعدني فحثالي ثلاثا

* الركوة ـ الزورق الصغير .

ويقيد قلبه ، فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ،فلاجرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال . وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ،وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ، ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ،ليقتدوا به في الترك ،إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ،ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون .والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء، والأولياء ، والعلماء

فقد عرفت إذاً أن المراتب ست ، وأعلاها رتبة المستغنى ، ثم الزاهد ، ثم الراضى ، ثم القانع ، ثم الحريص . وأما المضطر فيتصور فى حقه أيضا الزهد ، والرضا ، والقناعة ، ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال . واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى . بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر ، وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى فى جميع أموره عامة ، وفى بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ، فإنه أحق باسم العبد من الغافلين ، وإن كان اسم العبد عاما للخلق ، فكذلك اسم الفقير عام . ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير . فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين

وإذا عرفت هذا الاشتراك ، فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ » وقوله عليه السلام[2] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » لايناقض قوله[3] « أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه ،والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة ، والذلة ، والافتقار إلى الله تعالى ، هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

---

(١) حديث أعوذ بك من الفقر :تقدم فى الاذكار والدعوات

(٢) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا :تقدم فى ذم الحسد

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا:الترمذي من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

بيان

فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ [1]) الآية ، وقال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ [2]) ساق الكلام فى معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر

وأما الأخبار فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصى . روى عبد الله [1] بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ » فقالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله . فقال « نِعْمَ الرَّجُلُ هَذَا وَلَيْسَ بِهِ » قالوا فمن خير الناس يارسول الله ؟ قال « فَقِيرٌ يُعْطِي جُهْدَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] لبلال « الْقَ اللهَ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » وفى الخبر المشهور [4] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وفى حديث آخر [5] « بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » أى أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص . والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد

---

(١) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده : ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له

(٢) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا : الحاكم فى كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف

(٣) حديث ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال : ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام : الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم

(٥) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا : مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس

---

(١) الحشر : ٨ (٢) البقرة : ٢٧٣

على الغني الراغب . وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد ؛ إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة

ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق ، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم [1] « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » فإنه تقدير تحقيق لا محالة . ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين . فأما بالتحقيق فلا . إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص

أحدها : أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته ، والملائكة ، والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره ، بل مخالفا له بكثرة المعلومات ، وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف

والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات ، كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة ، وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى

والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم ، كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع : أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب ، إما في اليقظة أو في المنام ، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ ، فيرى ما فيه من الغيب

فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ، ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين ، وإلى خمسين ، وإلى ستين ، ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين ، بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها . ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين ، فلا ندري تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وكذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير

---

(١) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة : البخارى من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء ـ الحديث ؛ وقد تقدم

فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لِمَ كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد ، حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة ؛ واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام ، فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ، ولا وثوق به . والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولنرجع إلى نقل الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا [١] « خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُهَا تَضَجُّعًا فِي الْجَنَّةِ ضُعَفَاؤُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ لِي حِرْفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَمَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي الْفَقْرَ وَالْجِهَادَ » . وروي [٣] أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ، وتكون معك أينما كنت ؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال « يَا جِبْرِيلُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » فقال له جبريل : يا محمد ، ثبتك الله بالقول الثابت

وروي أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة ، فأيقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى . فقال ما تريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها . فقال له فنم إذاً يا حبيبي . ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب ، وتحت رأسه لبنة ، ووجهه ولحيته في التراب ، وهو متزر بعباءة : فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه . يا موسى : أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها

وعن [٤] أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فلم يجد عنده

---

(١) حديث خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان لي حرفتين اثنتين ـ الحديث : وفيه الفقر والجهاد لم أجد له أصلا

(٣) حديث ان جبريل نزل فقال ان الله يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ـ الحديث : وفيه ان الدنيا دار من لا دار له ـ الحديث : هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث : وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له . الحديث : وقد تقدم في ذم الدنيا

(٤) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني

ما يصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر ، وقال « قُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقاً إِلَى هِلالِ رَجَبٍ » قال فأتيته ، فقال لا والله إلا برهن . فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال « أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ اذْهَبْ بِدِرْعِي هَذَا إِلَيْهِ فَارْهَنْهُ » فلما خرجت نزلت هذه الآية (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [1]) الآية . وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « الْفَقْرُ أَزْيَنُ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْعِذَارِ الْحَسَنِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جِسْمِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام ، ياموسى ، إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين . وقال عطاء الخراسانى . مرّ نبى من الأنبياء بساحل ، فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال بسم الله ، وألقى الشبكة . فلم يخرج فيها شيء . ثم مر بآخر ، فقال باسم الشيطان ، وألقى شبكته ، فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . يارب ، ما هذا ؟ وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة . اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما . فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ، ولذاك من الهوان ، قال رضيت يارب

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ » وفى لفظ آخر « فَقُلْتُ أَيْنَ الأَغْنِيَاءُ فَقِيلَ حَبَسَهُمُ الْجَدُّ » وفى حديث آخر [3] « فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ »

الى رجل من يهود خيبر ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم الطبرانى بسند ضعيف

(١) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس : الطبرانى من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف انه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى فى الكامل هكذا

(٢) حديث من أصبح منكم معافى فى جسمه ـ الحديث : الترمذى وقد تقدم

(٣) حديث أطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث : تقدم فى آداب النكاح مع الزيادة التى فى آخره

---

(١) طه : ١٣١

فَقُلْتُ مَاشَأْنُهُنَّ فَقِيلَ شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الْفَقْرُ » وفى الخبر [٢] « آخِرُ الأَنْبِياءِ دُخُولاً الْجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ وَآخِرُ أَصْحَابِى دُخُولاً الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ لِأَجْلِ غِنَاهُ » وفى حديث آخر [٣] « رَأَيْتُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ زَحْفاً » . وقال المسيح صلى الله عليه وسلم . بشدة يدخل الغني الجنة

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال [٤] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ابْتَلاَهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبَّ الْبَالِغَ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه ؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلاَ مَالاً » . وفى الخبر [٥] « إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلاً فَقُلْ مَرْحَباً بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلاً فَقُلْ ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ »

وقال موسى عليه السلام . يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال كل فقير فقير . فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء . وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين .

ولما [٦] قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم: اجعل لنا يوما ولهم يوم،

---

(١) حديث تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر: رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا

(٢) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان ـ الحديث : تقدم وهو فى الأوسط للطبرانى باسناد فردوفيه نكارة

(٣) حديث رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا: تقدم وهو ضعيف

(٤) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى

(٥) حديث اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبى الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى فذكره بزيادة فى أوله ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع باسناد ضعيف

(٦) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه انه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم اذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان

يجيئون إليك ولا نجيء ونجيء إليك ولا يجيئون ، يعنون بذلك الفقراء ، مثل بلال ، وسلمان ، وصهيب ، وأبي ذر ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وأبي هريرة ، وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين : أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم ، وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء ، منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ، وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم . فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ، فنزل عليه قوله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ [١]) يعني الفقراء (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٢]) يعني الأغنياء (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا [٣]) يعني الأغنياء (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [٤]) الآية . [١] واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى [٥]) يعني ابن أم مكتوم (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [٦]) يعني هذا الشريف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [٢] « يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْتَذِرُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي مَازَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيلَةِ أُخْرُجْ يَاعَبْدِي إِلَى هَذِهِ

---

(١) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى عبس وتولى : الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قات ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي مازويت الدنيا عنك لهوانك علي ـ الحديث : أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما اني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم علي ولكن أردت بذلك ان أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شئتم اليوم ـ الحديث : دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسيأتي في الحديث الذي بعده

(١ ، ٢ ، ٣) الكهف : ٢٨ (٤) الكهف : ٢٩ (٥ ، ٦) عبس : ١ - ٥

الصُّفُوفِ فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيَّ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ » . وقال عليه السلام [١] « أَكْثِرُوا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الْأَيَادِيَ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً » قالوا يا رسول الله وما دولتهم؟ قال « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهُمُ انْظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَةً أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلَالٌ وَنَظَرْتُ فِي أَعْلَاهَا فَإِذَا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلَادُهُمْ وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ فَقُلْتُ يَارَبِّ مَا شَأْنُهُمْ قَالَ أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهِنَّ الْأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الْحِسَابِ وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَمْ أَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ عَوْفٍ ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ مَا خَلَّفَكَ عَنِّي قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ الْمُشِيبَاتِ وَظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَرَاكَ فَقُلْتُ وَلِمَ؟ قَالَ كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي » فانظر إلى هذا ، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من العشرة [٣] المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا » ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد

[٥] ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ، فلم ير له شيئا . فقال « لَوْ قُسِّمَ

---

(١) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة ـ الحديث : أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادى فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا الى الفقراء فيعتذر اليهم كما يعتذر أحدكم الى أخيه في الدنيا

(٢) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فاذا بلال ونظرت الى أعلاها فاذا فقراء أمتي وأولادهم الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر

(٣) حديث ان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بانهم من أهل الجنة : أصحاب السنن الاربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذي حسن صحيح

(٤) حديث الا من قال بالمال هكذا وهكذا : متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم

(٥) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم : لم أجده

نورُ هَذا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الجَنَّةِ » قالوا بلى يارسول الله . قال « كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَيُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ »

[2] وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه ، فقال « يَاعِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهاً فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله . فقام وقمت معه ، حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِي ؟ » قالت ومن معك يارسول الله ؟ قال « عِمْرَانُ » فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ماعليّ إلا عباءة . قال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده .فقالت هذاجسدى قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة ، فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَابُنَيَّتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضر بى الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لاَتَجْزَعِي يَابُنَيَّتَاهُ فَوَاللهِ مَاذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلاَثٍ وَإِنِّي لأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أَبْشِرِي فَوَاللهِ إِنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ » قالت فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ؟ قال « آسِيةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لاَأَذَى فِيهَا وَلاَصَخَبَ وَلاَ نَصَبَ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِي الدُّنْيَا سَيِّداً فِي الآخِرَةِ »

وروى عن عليّ كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[3] « إِذَا أَبْغَضَ

---

(١) حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولا ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث : دون قوله أغبر أشعث .

(٢) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال ياعمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث اذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث : أبو منصور الديلمى باسناد فيه جهالة وهو منكر

النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُمُ اللهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْخِيَانَةِ مِنْ وُلَاةِ الْأَحْكَامِ وَالشَّوْكَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ »

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبسا ، أو قال أشد حسابا من ذى الدرهم . وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا ، فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال أشد من ذلك . ثم قال : أريني درعك الخلق . فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة ، ثم قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [1] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ »

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد

وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله ، فقال له تخط ، لو كنت غنيا لما قربتك . وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء ، لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء

وقال المؤمل : ما رأيت الغني أذل منه فى مجلس الثوري ، ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثوري رحمه الله . وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا . ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا . ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا

وقال ابن عباس . ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه : لا تحتقرن أحدا لخلقان ثيابه ، فإن ربك وربه واحد

وقال يحي بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين . وفى الأخبار عن الكتب

---

(١) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام ـ الحديث : وفى أوله قصة أن عمر بعث الى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها وقد روى أحمد فى الزهد القصة الا أنه قال لسبعين عاما وفى اسناده يزيد بن أبى زياد تكلم فيه وفى رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبى هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقتين

السالفة ، أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصبّ الدنيا عليك صبا

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد ، يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ؟ وكانت صائمة ، فقالت لو ذكرتيني لفعلت . وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال[1] « إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الْفُقَرَاءِ وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزِعِي دِرْعَكِ حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وجاء رجل إلى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها . فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم . أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل ذلك أبدا رضي الله عنه .

بيان

فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا » فالأول القانع ، وهذا الراضي . ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره . ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتي تحقيقه . فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه . ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله . فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر .

---

(١) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ـ الحديث : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث :

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [١] « إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحاً وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ هُمْ جُلَسَاءُ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وروي عن علي كرم الله وجهه . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [٢] « أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الْفَقِيرُ الْقَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللهِ تَعَالَى » . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً » وقال [٤] « مَا مِنْ أَحَدٍ غَنِيٍّ وَلاَ فَقِيرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتاً فِي الدُّنْيَا »

وأوحى الله تعالى إلى اسماعيل عليه السلام . اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال ومن هم قال الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِياً » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنَا فَيَقُولُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْقَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي أَدْخِلُوهُمُ الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ »

فهذا فى القانع والراضى ، واما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة . ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه : إن الطمع فقر ، واليأس غنى ، . وإنه من يئس عما فى أيدى الناس وقنع ، استغنى عنهم ، وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش : ياابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال أبو الدرداء

---

(١) حديث ان لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين ـ الحديث : الدارقطنى فى غرائب مالك وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر

(٢) حديث أحب العباد الى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله : لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه حديث ان الله يحب الفقير المتعفف

(٣) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا : مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم

(٤) حديث مامن أحد غنى ولا فقير الاود يوم القيامة انه كان أوتى قوتا فى الدنيا : ابن ماجه من حديث انس وقد تقدم

(٥) حديث لا أحد أفضل من الفقير اذا كان راضيا : لم أجده بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس

رضي الله تعالى عنه . مامن أحد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا ، والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك . ويح ابن آدم، ماينفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ وقيل لبعض الحكماء ماالغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك

وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر ، وفى يده رغيف يأكله . فلما أكل نام .فقال لبعض غلمانه إذا قام فجئنى به . فلما قام جاء به إليه . فقال إبراهيم . أيها الرجل ، أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعت ؟ قال نعم . قال ثم نمت طيبا ؟ قال نعم . فقال ابراهيم فى نفسه . فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ؟ • ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا . فقال له . ياعبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال ألا أدلك على من رضي بشر من هذا ؟ قال بلى ، قال من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا، فيبله بالماء، ويأكله بالملح، ويقول. من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد وقال الحسن رحمه الله . لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه. ثم قرأ (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ[1]) الآية .وكان أبو ذر رضي الله تعالى عنه يوما جالسا فى الناس ، فأتته امرأته فقالت له . أتجلس بين هؤلاء؟ والله مافى البيت هفة ولا سفة ، فقال ياهذه، إن بين أيدينا عقبة كؤدا، لا ينجو منها إلا كل مخف . فرجعت وهي راضية . وقال ذو النون رحمه الله. أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له . وقيل لبعض الحكماء. ما مالك ؟ فقال التجمل فى الظاهر ، والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس . وروي أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة. ياابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا محسن إليك وقد قيل فى القناعة

اضرع إلى الله لاتضرع إلى الناس   واقنع بيأس فإن العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم   إن الغني من استغنى عن الناس

(١) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا

ياجامعا مانعا والدهر يرمقه	مقدرا أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته	أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له	ياجامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
إرفه ببال فتى يغدو على ثقة	إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق فى ظلها هما يؤرقه

بيان

فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا . فذهب الجنيد ، والخواص ، والأكثرون ، إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء : الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه فى هذا ، فأصابته محنة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل . فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقا ، لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار فى تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول :

إنما يتصور الشك فى مقامين . أحدهما : فقير صابر ، ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض ، بالإضافة إلى غني منفق ماله فى الخيرات ، ليس حريصا على إمساك المال

والثانى : فقير حريص ، مع غني حريص . إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك ، وأن الغني المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص

أما الأول ، فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا فى ضعف الحرص على المال ، والغني متقرب بالصدقات والخيرات ، والفقير عاجز عنه . وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه . فأما الغني المتمتع بالمال ، وإن كان فى مباح ، فلا يتصور أن نفضل على

الفقير القانع . وقد يشهد له ماروي فى الخبر ، الفقراء[1] شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات ، والصدقات ، والحج ، والجهاد ، فعلمهم كلمات فى التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق مانال الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ! فقال عليه السلام « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » وقد استشهد به ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال : الغني أفضل لأنه وصف الحق

أما دليله الأول ففيه نظر ؛ لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك ، وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغني ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى[2] زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إني رسول الفقراء إليك ، فقال « مَرْحَباً بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أُحِبُّهُمْ » قال قالوا يارسول الله ، إن الأغنياء ذهبوا بالخير ، يحجون ولا نقدر عليه ، ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلاَثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلأَغْنِيَاءِ أَمَّا خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَبِيٌّ فَقِيرٌ أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ وَالثَّانِيَةُ يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَالثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ الْغَنِيُّ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ

---

(١) حديث شكى الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات ـ الحديث ؛ وفى آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه

(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ان الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ـ الحديث : وفيه بلغ عنى الفقراء ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء ـ الحديث : لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف فى هذا المعنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مافضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يامعشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام واسناده ضعيف

فِيهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا » فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا . رضينا رضينا .

فهذا يدل على أن قوله « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أي من يد ثواب الفقراء على ذكرهم

وأما قوله : إن الغني وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال . أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض ؟ فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا . إن التكبر من صفات الحق ، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع . ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد ، كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها . ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم[1] « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ » وقال سهل . حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها ، لأنهما من صفات الرب تعالى

فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات ، وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها . إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد . وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم . فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر ، وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره ، فينبغي أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله . والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى . ولا الفقر مطلوبا لعينه ، لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم الشاغل عنه . وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل، مثل سليمان عليه السلام ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد . وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل ، كما أن الغنى قد يكون من الشواغل . وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب . والمحب للشيء مشغول به سواء كان

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري : تقدم في العلم وغيره

فى فراقه أو فى وصاله . وربما يكون شغله فى الفراق أكثر ، وربما يكون شغله فى الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها

فإذاً إن فرضت فارغين عن حب المال ، بحيث صار المال فى حقهما كالماء ، استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة . ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة ، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ، إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا يقدر . ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم . بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذى لا يوجد فى الأعصار الكثيرة إلا نادرا . ولما كان خطاب الشرع مع الكل ، لا مع ذلك النادر ، والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ، زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام . لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا ، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان . وفى الخبر « إنّ [1] لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجْلاً وَعِجْلُ هَذِهِ الأُمَّةِ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا . واستواء المال والماء ، والذهب والحجر ، إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء . ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم [2] يقول للدنيا « إِلَيْكِ عَنِّي » إذ كانت تتمثل له بزينتها . وكان علي كرم الله وجهه يقول . يا صفراء غري غيري ويا بيضاء غري غيري . وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادى الاغترار بها . لولا أن رأى برهان ربه . وذلك هو الغنى المطلق . إذ قال عليه الصلاة والسلام [3] « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

وإذا كان ذلك بعيدا ، فإذاً الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون فى القدرة على المال عن أنس بالدنيا ، وتمتع بالقدرة عليها

---

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الامة الدينار والدرهم : أبو منصور الديلمى من طريق أبي عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة باسناد فيه جهالة

(٢) حديث كان يقول للدنيا اليك عنى ـ الحديث : الحاكم مع اختلاف وقد تقدم

(٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

واستشعار راحة فى بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم . وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة . وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبّه . ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجا فى القلب عن الدنيا وزهرتها. والقلب إذا تجا فى عما سوى الله تعالى ، وكان مؤمنا بالله ،انصرف لامحالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره . فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ،وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر . ومثلهما مثل المشرق والغرب ، فإنهما جهتان ، فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر . بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر . فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها

فإذاً فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط .فإن تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور . فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال،ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لايشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقده . فليجرب نفسه بتفريقه ، أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا ، فليعلم أنه كان مغرورا . فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها . فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية ، اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة فيه ، فتحقق إذاً أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد . وهذا حال كل الأغنياء ، إلا الأنبياء والأولياء

وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا ، فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف . وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته . فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها ، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور . ولا يكون تأثيرها فى إثارة الأنس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول . ولذلك قال بعض السلف . مثل من تعبّد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها ، أفضل من عبادة غني ألف عام . وعن الضحاك قال:

من تدخل السوق فرأى شيئا يشتهيه ، فصبر واحتسب ، كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لى ، فقد أضرّ بى العيال . فقال . إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز ، فادع الله لى فى ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائى . وكان يقول . مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة ،ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء

وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها ، فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده ؟ هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا ، وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ، ويطول انتظاره . ومن نوقش الحساب فقد عذب . ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة ، إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ماأحب أن لى حانوتا على باب المسجد ، ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر ، وأربح كل يوم خمسين دينارا ، وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى . قيل وما تكره ؟ قال سوء الحساب

ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء . اختار الفقراء راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب . واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب ، وشدة الحساب . وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق ، فهو بذلك أفضل ، فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا ، بأن يستوي عنده كلاهما . فأما إذا كان غنيا بوجوده ، ومفتقر إلى بقائه ، فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غني بذاته ، لابما يتصور زواله . والمال يتصور زواله بأن يسرق . وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذم غني يريد بقاء المال . وما ذكر من أن صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح . بل العلم من صفاته ، وهو أفضل شيء للعبد . بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى . وقد سمعت بعض المشايخ يقول

إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له . أى يكون له من كل واحد نصيب

وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى . وأما التكبر على من يستحقه، كتكبر المؤمن على الكافر، وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى ، فيليق به . نعم قد يراد بالتكبر الزهو ، والصلف ، والإيذاء ، وليس ذلك من وصف الله تعالى . وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء ، وأنه يعلم أنه كذلك . والعبد مأمور بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه ، لا بالباطل والتلبيس . فعلى العبد ان يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصى ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها . فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها ، لكانت صفة التكبر حاصلة له ، ولائقة به ، وفضيلة فى حقة . إلا أنه لاسبيل له إلى معرفته ، فإن ذلك موقوف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون ، وكيف تتفق . فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفه العاقبة

ولما تصور أن يعلم الشيء على ماهو به ، كان العلم كمالا فى حقه ، لأنه فى صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره ، صار ذلك العلم نقصانا فى حقه . إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التى لاضرر فيها هي التى تتصور فى العبد من صفات الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة ، وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء

فإذاً لو استوى عنده وجود المال وعدمه ، فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجوه الغنى الذى يوصف به الله سبحانه ، فهو فضيلة . أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا

فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثانى : فى نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

ولنفرض هذا فى شخص واحد ، هو طالب للمال ، وساع فيه ، وفاقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود . فأي حالتيه أفضل ؟ فنقول . ننظر ، فإن كان مطلوبه مالا بد

منه فى المعيشة ، وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ، ويستعين به عليه ، فحال الوجود أفضل . لأن الفقر يشغله بالطلب . وطالب القوت لايقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل . والمكفى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » وقال « كَادَ ٱلْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لابد منه

وإن كان المطلوب فوق الحاجة ، أوكان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ، فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنهما استويا فى الحرص وحب المال ، واستويافى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى . ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه ، ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا ، وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه . ومهما استوت الأمور كلها ، وخرج من الدنيا رجلان ، أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لامحالة ، إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ، ويستوحش من الآخرة ، بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِى رُوعِى أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد . فينبغى أن تحب من لايفارقك وهو الله تعالى ولا تحب مايفارقك وهو الدنيا . فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ماتكرهه ، وفراقك لما تحبه . وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به . وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها ، وإن كان حريصا عليها . فإذاً قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف ، والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا فى موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها ، يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم ، والثانى : الفقر عن مقدار الضرورة ، فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه ، إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ، ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى ، ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل ، فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه : تقدم

فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر . ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ، ليس له همّ سواه ، وفي غنيّ دونه في الحرص على حفظ المال .ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، فهذا في محل النظر . والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال ، وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده ،والعلم عندالله تعالى فيه

بيان

آداب الفقير في فقره

اعلم أن للفقير ادابا في باطنه وظاهره ، ومخالطته وأفعاله ، ينبغي أن يراعيها . فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر . أعني أنه لايكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ، وإن كان كارها للفقر . كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارها فعل الحجام، ولا كارها للحجام . بل ربما يتقلد منه منّة . فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر .وهو معنى قوله عليه السلام « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاء أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا »

وأرفع من هذا أن لايكون كارها للفقر ، بل يكون راضيا به

وأرفع منه أن يكون طالبا له ، وفرحا به ، لعلمه بغوائل الغنى ،ويكون متوكلا في باطنه على الله تعالى ، واثقا به في قدر ضرورته أنه يأتيه لامحالة ، ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال علي كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر . فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة ، أن يحسّن عليه خلقه ،ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علاماته إذا كان عقوبة ، أن يسوء عليه خلقه ، ويعصى ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء

وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود . بل الذى لايتسخط ويرضى ، أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته . إذ قيل ماأعطي عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث : شغل ، وهم ، وطول حساب

وأما أدب ظاهره ، فأن يظهر التعفف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره . في الحديث « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ »

وقال تعالى (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ [1]) وقال سفيان . أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر

وأما في أعماله ، فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال علي كرم الله وجهه . ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل . فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم ، لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء . وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل

وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء ، وطمعا في العطاء

وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . [1] روى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ » قيل وكيف ذلك يارسول الله؟ قال « أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَماً مِنْ دِرْهَمَيْنِ لاَ يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ الْمِائَةِ أَلْفٍ »

وينبغي أن لا يدخر مالا ، بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي . وفي الادخار ثلاث درجات

إحداها : أن لا يدخر إلا ليومه وليلته ، وهي درجة الصديقين

والثانية : أن يدخر لأربعين يوما ، فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل . وقد فهم العلماء

---

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يارسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف ـ الحديث : النسائي من حديث أبي هريرة متصلا وقد تقدم في الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا

---

(١) البقره : ٢٧٣

ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ، ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوما ، وهذه درجة المتقين

والثالثة : أن يدخر لسنته ، وهي أقصى المراتب ، وهي رتبة الصالحين

ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم، خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل، و بعضهن قوت أربعين يوما ،و بعضهن يوما وليلة ،وهو قسم عائشة وحفصة

بيان

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال،وغرض المعطي ،وغرضه في الأخذ . أما نفس المال . فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها . فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه . وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، ومايجب اجتنابه وما يستحب • وأما غرض المعطي. فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته ، وهو الهدية ، أو الثواب ، وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسمعة ، إما على التجرد ، وإما ممزوجا ببقية الأغراض

أما الأول وهو [1] الهدية ، فلا بأس بقبولها ؛ فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ينبغي أن لايكون فيها منّة . فإن كان فيها منّة فالأولى تركها. فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنّة فليرد البعض دون البعض . فقد [2] أهدي إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ان قبول الهدية سنة :تقدم انه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية

(٢) حديث أهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة وأهدت اليه كبشين وشيئا من سمن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر واسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه

سمن ، وأقط ، وكبش، فقبل السمن والأقط * ورد الكبش. [١] وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض النـاس ويرد على بعض. وقال [٢] « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهِبَ إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دُوسِيٍّ » وفعل هذا جماعة من التابعين

وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما · فقال حدثنا [٣] عطاء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى اللهِ » ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ، ورد سائرها . وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسى هذا ، وقبل من الناس مثل هذا ، لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه

وكان ابراهيم التيمى يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ، ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك ، وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل منى قبل القبول ، فأخبرنى حتى آخذه ، وإلا فلا . وأمارة هـذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ويرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته . فإن علم أنه يمازجه منّة ، فأخذه مباح ، ولكنه مكروه عند الفقراء الصـادقين

وقال بشر: ماسألت أحدا قط شيئا إلا سريا السقطى ، لأنه قد صح عندى زهده في الدنيا ، فهو يفرح بخروج الشيء من يده، ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على مايحب . وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال ، وسأله أن يأكله ، فقال أفرقه على الفقراء . فقال ماأريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال ماأريد أن تنفقه في الخل والبقـل ، بل في الحلاوات

---

(١) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض: أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وايم الله لا أقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا ـ الحديث : فيه محمد بن اسحق ورواه بالعنعنة

(٢) حديث لقد هممت ان لا أتهب الا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى :الترمذى من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات

(٣) حديث عطاء مرسلا من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فانما يرد على الله عزوجل :لم أجده مرسلا هكذا ولاحمد وأبي يعلى والطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عزوجل اليه ولاحمد وأبي داود الطيالسى من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ماأتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ـ الحديث :

* الأقط هو لبن مجفف يابس متحجر يطبخ به .

والطيبات فقبل ذلك منه . فقال الخراساني : ما أجد في بغداد أمنّ عليّ منك . فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك

الثاني : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة . وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة ، وكان يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه . فإن كان مقارفاً لمعصية في السر ، يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ، ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه .. كما لو أعطاه لظنه أنه عالم . أو علوي ، ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لا شبهة فيه

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت . وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقاً عليهم ، ونصحاً لهم ، لأنهم يذكرون ذلك ، ويحبون أن يعلم به ، فتذهب أموالهم ، وتحبط أجورهم

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد له منه ، أو هو مستغن عنه . فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى ، فالأفضل الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « مَا الْمُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الآخِذِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجاً » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلاَ اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ » وفي لفظ آخر « فَلاَ يَرُدُّهُ »

وقال بعض العلماء من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يُعْطَ . وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئاً ، فرده مرة . فقال له السري : يا أحمد ، احذر آفة الرد ، فإنها أشد من آفة الأخذ . فقال له أحمد . أعِدْ عليّ ما قلت . فأعاده ، فقال أحمد . ما رددت

---

(١) حديث ما المعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ اذا كان محتاجاً: الطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة

(٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفي لفظ آخر فلا ترده : تقدما قبل هذا بحديث

عليك إلا لأن عندي قوت شهر ، فاحبسه لي عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ" وقد قال بعض العلماء : يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع ، أو دخول في شبهة أو غيره

فأما إذا كان ماأتاه زائدا على حاجته ، فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه ، والتكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم ، لما في طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى . وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان ، أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان أحدهما : أن يأخذ في العلانية ويرد في السر ، أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس ، لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة

والثاني . أن يترك ولا يأخذ ، ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه ، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما في السر ، أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة ، مع جملة من أحكام الفقر . فليطلب من موضعه

وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله ، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ، ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ، فإن في ذلك آفات وأخطارا . والورع يكون حذرا من مظان الآفات ، إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه

وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي . أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى ؟ يامن يرى ولا يُرى . فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي . لا أجد لدراهمي موضعا أحسن من هذا . فحملتها إليه : فنظر إليها ، ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثا ، فلا حاجة بي إلى الباقي ، فرده . قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء . فالتفت إليّ ، فأخذ بيدي ، فأطافني معه أسبوعا ، كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين ، منها ذهب ، وفضة ، وياقوت ، ولؤلؤ ، وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه ، وآخذ من أيدي الخلق ، لأن هذه أثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة

والمقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة ، لينظر الله إليك ماذا

تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [1]) وقد قال صلى الله عليه وسلم [(1)] « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ »

فإذاً أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب

ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى، وكسراً لصفة النفس ، فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوّة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها ، فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد ، وعادت لعادتها ، ولا يمكن قهرها ، فردّ ذلك مهم ، وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصديقون

وأما إذا كانت حالك السخاء ، والبذل ، والتكفل بحقوق الفقراء ، وتعهد جماعة من الصلحاء ، فخذ مازاد على حاجتك ، فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم، ولا تدخره ، فإن امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو في قلبك فتمسكه ، فيكون فتنة عليك .

وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة . إلى التوسع في المال، والتنعم في المطعم والمشرب ، وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به، فله أن يستقرض على حسن الظن بالله ، لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاه ، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه ، وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه ، فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد ، بل يكشف حاله عنده، ليقدم على إقراضه على بصيرة . ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ، ومن الزكاة . وقد قال تعالى (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ [2]) قيل معناه

---

(1) حديث لاحق لابن آدم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح

---

(1) الكهف : ٧ (2) الطلاق : ٧

يبيع أحد ثوبيه، وقيل معناه فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم : إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم ، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل من هؤلاء ؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى . فإذاً مهما وجدت هذه الشروط فيه ، وفي المال ، وفي المعطى ، فليأخذه وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى ، لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء ، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي ، والإرادات والإعتقادات

وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لأصحابه : إن هذا الرجل يقول من لم يرني صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام . فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم ، كان دونهم في الدرجة . فقال صاحب المنزل لشقيق : ما قصدت بهذا ؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم

وقال موسى عليه السلام . يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني اسرائيل ، يغديني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة ! فأوحى الله تعالى إليه . هكذا أصنع بأوليائي ، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطى إلا من حيث أنه مسخر مأجور من الله تعالى . نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

بيان

تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات . وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم[1] « لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ » ، وفي الحديث[2] « رُدُّوا

---

(١) حديث للسائل حق وان جاء على فرس : أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث انه بلغه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق ـ الحديث : فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده

(٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق : أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد وقال ابن عبد البر حديث مضطرب

السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه والإعطاء إعانة . فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الأصل ، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة . فإن كان عنها بد فهو حرام . وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لاينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين الشكوى . وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة

الثانى : أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى . وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه ، فإن فيه عزه . فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة . وفى السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤل

الثالث : أنه لاينفك عن إيذاء المسؤل غالبا ، لأنه ربما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع ، إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء . ففى البذل نقصان ماله ، وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الإيذاء ، والإيذاء حرام إلا بضرورة

ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الْفَوَاحِشِ مَا أُحِلَّ مِنَ الْفَوَاحِشِ غَيْرُهَا » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة ، كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لايجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ »

---

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها : لم أجد له أصلا

(٢) حديث من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم ـ الحديث : أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم فى الزكاة ولمسلم من حديث أبى هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ـ الحديث : وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمرو لايزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه وفى اسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم واسناده جيد

(١) « وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ » وفى لفظ آخر « كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشاً وَكُدُوحاً فِى وَجْهِهِ » وهـذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد

وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام ، فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة[٢] « وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال، ويقول[٣] « مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا» وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ » قالوا ومنك يارسول الله ؟ قال « وَمِنِّي »

وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه :عشّ الرجل فعشاه . ثم سمعه ثانيا يسأل ، فقال . ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزا . فقال . لست سائلا ، ولكنك تاجر . ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة ، وضربه بالدّرة ، وقال لاتعد . ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته

ولعل الفقيه الضعيف المنة ، الضيق الحوصلة ، يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب ، وقد ورد الشرع بالتعزير . وأما أخذه ماله فهو مصادرة، والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال، فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه . فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واطلاعه على أسرار دين الله

---

(١) حديث من سأل وله مايغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه : أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة

(٢) حديث بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الاشجعى

(٣) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب الينا : ابن أبى الدنيا فى القناعة والحارث ابن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات

(٤) حديث استغنوا عن الناس وماقل من السؤال فهو خير ـ الحديث : البزار والطبرانى من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك واسناده صحيح وله فى حديث يعدى الجذام فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وماقل من السؤال الخ

ومصالح عباده . أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة ؟أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله ؟ وحاشاه .أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله؟وهيهات فإن ذلك أيضا معصية .بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ،وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذبا ، فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه . إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقي مالا لا مالك له فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح

ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا ، كأخذ العلوي بقوله إني علوي وهو كاذب ، فإنه لا يملك ما يأخذه .وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه،وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه . وقد ذكرنا في مواضع أن ماأخذوه على هذا الوجه لا يملكونه ، وهو حرام عليهم ، ويجب عليهم الرد إلى مالكه . فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع . ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة ، أو حاجة خفيفة ، أو مستغنى عنه ،فهذه أربعة أحوال

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا ، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته . وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله . فسؤاله حرام قطعا . وهذان طرفان واضحان

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف . وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء ، وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة . وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة . فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة ، لأنها أيضا حاجة محققة .ولكن الصبر عنه أولى

وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال : وقال ليس تحت جبتي قميص ، والبرد يؤذيني أذى أطيقه ؛ ولكن يشق عليّ . فإذا صدق فصدقُه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ؛ ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز . وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار . أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام . وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة ، من الشكوى ، والذل ، وإيذاء المسؤل فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لاتصلح لأن تباح بها هذه المحذورات . وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة

فإن قلت :فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟

فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج ،ولكن يقول :أنا مستغن بما أملكه ، ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي ، وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس . فيخرج به عن حد الشكوى

وأما الذل فبأن يسأل أباه ، أو قريبه ، أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ، ولا يزدريه بسبب سؤاله،أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم،فيفرح بوجود مثله ، ويتقلد منه منّة بقبوله ، فيسقط عنه الذل بذلك . فإن الذل لازم للمنّة لا محالة

وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه ، بل يلقى الكلام عرضا ، بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة . وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح ، بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا إلى التغافل إن أراد . فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته ، وأنه غير متأذ به . وينبغي أن يسأل من لا يستحي منه لو ردّه أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى ، كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى

فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ، ولولاه لما ابتدأه به ، فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب ، أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام . وضرب الباطن أشد نكاية فى قلوب العقلاء . ولا يجوز أن يقال هو فى الظاهر قد رضي به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ » فإن هذه ضرورة القضاة فى فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان ، مع أنه ترجمان كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه . وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام ، فلا تنظر فى مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا .

فإذاً ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ، ويجب عليه رده إلى صاحبه . فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده ، فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ، ليتفصى عن عهدته . فإن لم يقبل هديته ، فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته . فإن تلف فى يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى ، وهو عاص بالتصرف فيه ، وبالسؤال الذى حصل به الأذى

فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟ فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا

فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا : فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا . فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما . وقال : لأنى علمت أنه يفرح بخروج المال من يده ، فأنا أعينه على ما يحب . وإنما عظم النكير فى السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا . لأن الأذى إنما يحل بضرورة ، وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ،

(١) حديث انما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر : لم أجد له أصلا وكذا قال المزى لما سئل عنه.

ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك ، كما يباح له أكل لحم الخنزير ، وأكل لحم الميتة . فكان الامتناع طريق الورعين . ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض النـاس دون البعض . ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه . ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكبش والسمن والأقط . وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة . ولكن قد تكون رغبته طمعاً فى جاه ، أو طلبا للرياء والسمعة ، فكانوا يحترزون من ذلك

فأما السؤال فقد امتنعوا عنـه رأســـا إلا فى موضعين :

أحدهما: الضرورة،فقدسأل ثلاثةمن الأنبياء فى موضع الضرورة . سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك فى أنهم ماسألوا إلا من علموا أنه يرغب فى إعطائهم

والثانى : السؤال من الأصدقاء والإخوان ، فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم . فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم فى اقتدار إخوانهم على مايريدونه ، وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال

وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسؤل بصفة لو علم مابك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا فى تعريف حاجتك . فأما فى تحريكه بالحياء ، وإثارة داعيته بالحيل فلا . ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها فى الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك فى الكراهة . ويعلم ذلك بقرينة الأحوال . فالأخذ فى الحالة الأولى حلال طلق ، وفى الثانية حرام سحت . ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها ، فليستفت قلبه فيها ، وليترك حزاز القلب ، فإنه الإثم . وليدع مايريبه إلى مالا يريبه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته ، وضعف حرصه وشهوته . فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له مايوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » وقد أوتي جوامع الكلم

---

(١) حديث ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه : تقدم

لأن من لا كسب له ، ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته ، فيأكل من أيدى الناس وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه . ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما . وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة ؟

فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك . فإذاً بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير

بيان

مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ » صريح فى التحريم . ولكن حد الغنى مشكل ، وتقديره عسير . وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف

وقد ورد فى الحديث [١] « اسْتَغْنُوا بِغِنَى اللهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ » قالوا وما هو ؟ قال « غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ » وفى حديث آخر [٢] « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا » وورد فى لفظ آخر أربعون درهما . ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة . فإن الحق فى نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع . وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين فنقول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِى ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِى عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يَكُنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ » فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الأجناس والمقادير والأوقات

---

(١) حديث استغنوا بغنى الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة : تقدم فى الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما يغنيه قال ما يغديه أو يعشيه ولأحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى قال عشاء ليلة وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة

(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا وفى لفظ آخر أربعون درهما : تقدما فى الزكاة

فأما الأجناس فهي هذه الثلاث . ويلحق بها ما فى معناها . حتى يلحق بهـا الـكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي ، وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات . ويلحق بنفسه عياله وولده ، وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين ، وهو ثوب واحد ، وقيص ، ومنديل وسراويل ، ومداس ؛ وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه . وليقس على هذا أثاث البيت جميعا . ولا ينبغى أن يطلب رقة الثياب ، وكون الأوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف ، فإن ذلك مستغنى عنه . فيقتصر من العدد على واحد ، ومن النوع على أخس أجناسه مالم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقـدره فى اليوم مُدّ ، وهو ماقدره الشرع . ونوعه مايقتات ولو كان من الشعير ، والأدم على الدوام فضلة ، وقطعه بالكلية إضرار ، ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله مايجزىء من حيث المقدار ، وذلك من غير زينة . فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى

وأما بالإضافة إلى الأوقات ، فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة ، وثوب يلبسه ومأوى يكنه ، فلا شك فيه . فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات

إحداها : مايحتاج إليه فى غد . والثانية : مايحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما

والثالثة : مايحتاج إليه فى السنة . ولنقطع بأن من معه ما يـكفيه له ولعياله ، إن كان له عيال ، لسنة ، فسؤاله حرام . فإن ذلك غاية الغنى ، وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث . فإن خمسة دنانير تـكفى المنفرد فى السنة إذا اقتصد . أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك . وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته . فلا يحل له السؤال ، لأنه مستغن فى الحال ، وربما لا يعيش إلى الغد ، فيكون قد سأل مالا يحتاج ، فيـكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد فى التقدير بهذا القدر .

وإن كان يفوته فرصة السؤال ، ولا يجد من يعطيه لو أخر ، فيباح له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد ، فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عمـا يغنيه

فإن كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا ، وكان ما لأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة ، لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار

وخوف الفوت ، وتراخي المدة التي فيهـا يحتاج إلى السؤال

وكل ذلك لا يقبل الضبط ، وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه ، ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة . وكل من كان يقينه أقوى، وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم ، وقناعته بقوت الوقت أظهر ، فدرجته عند الله تعالى أعلى. فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان . وقد قال تعالى (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [1]) وقال عز وجل (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا [2])

والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة . وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة ، أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة . وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ، ولكنهما صادران عن حب الدنيا ، وطول الأمل ، وعدم الثقة بفضل الله . وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان

أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ . فهذا مع الروحانيين في عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ . فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين : فإذاً قد اتفق كلهم على ذم السؤال، وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا . وظن أنه لما وصفهم

---

(١) آل عمران : ١٧٥ (٢) البقرة : ٢٦٨

بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء . فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا . فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك ياأبا اسحق فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال صدقت ياأستاذ . فإذاً درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر ، والشكر ، والسؤال كثيرة . فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ، ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين . وقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين . ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعا . وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه

وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ؛ ولكن بالإضافة إلى حالهم . فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبااسحق النورى رحمه الله يمديده ويسأل الناس فى بعض المواضع ، قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال . لا يعظم هذا عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « يَدُ الْمُعْطِي هِيَ الْعُلْيَا » فقال بعضهم يد المعطى هي يد الآخذ للمال ، لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه . ثم قال الجنيد . هات الميزان . فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ، ثم قال احملها إليه . فقلت فى نفسى إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله . فذهبت بالصرة إلى النورى ، فقال هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال ردها عليه ، وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئا . وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبي ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه ؛ وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل . فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ، ورددت ما جعله لنفسه . قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال . أخذ ماله ورد مالنا ، الله المستعان

---

(١) حديث يد المعطى هي العليا : مسلم من حديث أبي هريرة

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت لله أعمالهم ، حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال، وخلو القلب عن حب الدنيا، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة

فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل ، فأنكر ذلك لغيره ، كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى باطنه ، فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا . وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ، ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين . إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم ، فهو صاحب الذوق والمعرفة ، وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق ، أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به ، فهو صاحب علم اليقين ، وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة ، وإن كان دون عين اليقين . ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ، ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين ، الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب

الشطر الثانى

من الكتاب فى الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد فى المطعم ، والملبس ، والمسكن ، والأثاث ، وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد

بيان

حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال ، وعمل ، كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد ، وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن . وإلا فليس القول

مرادا لعينه . وإن لم يكن صادرا عن حال سمي إسلاما ولم يسم إيمانا . والعلم هو السبب فى الحال ، يجرى مجرى المثمر ، والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة . فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فنعنى بها مايسمى زهدا . وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ماهو خير منه . فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه . وإنما عدل إلى غيره لرغبته فى غيره ، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا

فإذاً يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ، ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه . فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهدا . إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا . وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير ، لأن التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة

وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه ، حتى تغلب هذه الرغبة . فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا . ولذلك قال الله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ [1]) معناه باعوه . فقد يطلق الشراء بمعنى البيع . ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف ، فباعوه طمعا فى العوض . فإذاً كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا . وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة ، وإن كان هو للميل فى وضع اللسان

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى ، حتى الفراديس ، ولا يحب إلا الله تعالى ، فهو الزاهد المطلق . والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ، ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة ، بل طمع فى الحور ، والقصور ، والأنهار

---

(1) يوسف : ٢٠

والفوا كه فهو ايضا زاهد ، ولـكنه دون الأوّل والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذى يترك المال دون الجاه ، أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة ، فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا . ودرجتـه فى الزهاد درجـة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين . وهو زهد صحيح . كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة . فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض، كما لا يبعد ذلك فى المحظورات . والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً ، وإن كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات . فإذاً الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ،وهي الدرجة العليا . وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده ، فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإنّ ترك مالا يقدر عليه محال . وبالترك يتبين زوال الرغبة . ولذلك قيل لابن المبارك يازاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز ،إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيما ذا زهدت؟

وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال ، فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه . ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع . فـكذلك من عرف أن ماعند الله باق ، وأن الآخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسهـا وأبقى ، كما تـكون الجواهر خـيرا وأبقى من الثلج مثلا ، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلئ . فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لايزال فى الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذى لافناء له

فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة، تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى أن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعـالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [1]) ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ [2])

فليس يحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى . وقد

(١ ، ٢) التوبة : ١١١

يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه ، وكونه مقهورا فى يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم ، إلى أن يختطفه الموت ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت

وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ[١]) وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ[٢]) فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه

ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه ،[١] قال رجل فى دعائه اللهم أرنى الدنيا كما تراها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لاَ تَقُلْ هَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالإضافة إلى ماهو خير له . ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا لأنه مستغنى عن الحشرات أصلا ، وليس مستغنيا عن الفرس . والله تعالى غني بذاته عن كل ماسواه ، فيرى الكل فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره . والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره

وأما العمل الصادر عن حال الزهد ، فهو ترك واحد ، لأنه بيع ،ومعاملة، واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى. فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع، وإخراجه من اليد، وأخذ العوض ،فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية، وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها، ومقدماتها ، وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها ، ويدخل حب الطاعات ، ويخرج من العين واليد ماأخرجه من القلب ، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات . وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وفى بشرط الجانبين فى الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به ،فإن الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد .فمن سلم حاضرا فى غائب ،وسلم الحاضر

(١) حديث قال رجل اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك :ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم أرنى الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده

(١) النساء : ٧٧ (٢) القصص : ٨٠

وأخذ يسعى فى طلب الغائب ، سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه ، وقدرته ، ووفائه بالعهد . ومادام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين ، وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف ، حتى تشفع فيه أحدهم فترك . ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع

فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ، ولست زاهدا مطلقا . وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا ، لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره ، ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها . فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله . فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها . فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها فى المباحات . والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة . فإذا وفت بما وعدت على الدوام ، مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا ، فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما . ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فإنها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع.

وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط ، وذلك عند القدرة قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتى فى مسألة إلا رد علينا ؟ يعنى أبا حنيفة . فقال ابن شبرمة : لا أدرى أهو ابن الحائك أم ماهو ؛ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها . وكذلك [1] قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ، ولو علمنا فى أي شيء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ [1])

---

(١) حديث قال المسلمون انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم الآية لم أقف له على أصل

---

(١) النساء : ٦٦

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم « أَنْتَ مِنْهُمْ » يعني من القايل . قال[1] وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ[1])

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة، وعلى سبيل استمالة القلوب ، وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ، ولكن لامدخل لشيء منه في العبادات. وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعامك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة . فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لايؤمن بالآخرة. فذلك قد يكون مروءة ، وفتوة ، وسخاء ، وحسن خلق . ولكن لايكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة ، وهي ألذوأهنأ من المال . وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعا في الذكر ، والثناء ،والاشتهار بالفتوة والسخاء ، واستثقالا له لما في حفظ المال من المشقة ،والعناء ،والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا . بل هو استعجال حظ آخر للنفس . بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة ،صفوا عفوا، وهو قادر على التنعم بها،من غير نقصان جاه وقبح اسم ،ولافوات حظ للنفس ،فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ،ومحبا لما سوى الله ،ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره ، أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة ، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين ،وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة واشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة ، وخوفا من أن يقال له (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا[2]) فآثر في جميع ذلك ماوعد به في الجنة على ماتيسر له في الدنيا عفوا صفوا ، لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها في الآخرة أصلا

---

(١) حديث ابن مسعود ماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا الآية :البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) الاحقاف : ٢٠

بيان

فضيلة الزهد

قال الله تعالى(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ [١]) إلى قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ [٢]) فنسب الزهد إلى العلماء ، ووصف أهله بالعلم ، وهو غاية الثناء . وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [٣]) وجاء فى التفسير على الزهد فى الدنيا . وقال عز وجل (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [٤]) قيل معناه أيهم أزهد فيها . فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [٥]) وقال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٦]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ [٧]) فوصف الكفار بذلك . فمفهومه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه ، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا

وأما الأخبار . فما ورد منها فى ذم الدنيا كثير . وقد أوردنا بعضها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، إذحب الدنيا من المهلكات . ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات ،وهو المعنيّ بالزهد .وقدقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَمْتًا وَزُهْدًا فِي الدُّنْيَا

---

(١) حديث من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ـ الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذى من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

(٢) حديث اذا رأيتم العبد قد أوتى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة :ابن ماجه من حديث أبى خلاد بسند فيه ضعف

---

(١) القصص : ٧٩ (٢) القصص : ٨٠ (٣) القصص : ٥٤ (٤) الكهف : ٧ (٥) الشورى : ٢٠
(٦) طه : ١٣١ (٧) ابراهيم : ٣

فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ » وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [1]) ولذلك قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه ، وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال : [(1)] قلنا يارسول الله أى الناس خير ؟ قال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ » قلنا يارسول الله وما مخموم القلب ؟ قال « التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لاَ غِلَّ فِيهِ وَلاَ غِشَّ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ حَسَدَ » قلنا يارسول الله فمن على أثره ؟ قال « الَّذِي يَشْنَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الآخِرَةَ » ومفهوم هذا أن شر الناس الذى يحب الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [(2)] « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللهُ فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا » فجعل الزهد سببا للمحبة . فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ، فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات . ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى

وفى خبر من طريق أهل البيت [(3)] « الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ يَجُولاَنِ فِي الْقُلُوبِ كُلَّ لَيْلَةٍ فَإِنْ صَادَفَا قَلْبًا فِيهِ الإِيمَانُ وَالْحَيَاءُ أَقَامَا فِيهِ وَإِلاَّ ارْتَحَلاَ »

[(4)] ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا ؟ قال « وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » قال عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها . وكأنى بالجنة والنار ، وكأنى بعرش ربى بارزا . فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفْتَ فَالْزَمْ عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ » فانظر كيف بدأ فى إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا ، وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ »

ولما [(5)] سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ

---

(١) حديث قلنا يارسول الله وما مخموم القلب قال التقى النقى ـ الحديث : ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الخرائطى فى مكارم الأخلاق

(٢) حديث ان أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم

(٣) حديث الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه والا ارتحلا : لم أجد له أصلا

(٤) حديث لما قال لحارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة ايمانك ـ الحديث : البزار من حديث أنس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف

(٥) حديث سئل عن قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه ـ الحديث : الحاكم وقد تقدم

---

(١) البقرة : ٢٦٩

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ [1]) وقيل له : ماهذا الشرح ؟ قال « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ » قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال « نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » فانظر كيف جعل الزهد شرطا للإسلام ، وهو التجافي عن دار الغرور

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قالوا إنا لنستحيي منه تعالى فقال « لَيْسَ كَذَلِكَ تَبْنُونَ مَالَا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَالَا تَأْكُلُونَ » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى . [2] ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . فقال عليه الصلاة والسلام « إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَالَا تَأْكُلُونَ وَلَا تَبْنُوا مَالَا تَسْكُنُونَ وَلَا تَنَافَسُوا فِيمَا عَنْهُ تَرْحَلُونَ » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم . وقال [3] جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا يَخْلِطُ بِهَا غَيْرَهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، مالا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا ، فسره لنا . فقال « حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلَ الْجَبَابِرَةِ فَمَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وفي الخبر [4] « السَّخَاءُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ وَالْبُخْلُ مِنَ الشَّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكَّ » وقال أيضا [5] « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبَخِيلُ

---

(١) حديث استحيوا من الله حق الحياء ـ الحديث : الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف

(٢) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم ـ الحديث : الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر

(٣) حديث جابر من جاء بلا اله الا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة : لم أره من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف نحوه

(٤) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده

(٥) حديث السخي قريب من الله ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٥

بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ » والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد، والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة: وروي عن ابن المسيب، عن[1] أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِماً إِلَى دَارِ السَّلَامِ ». وروي أنه صلى الله عليه وسلم[2] مر في أصحابه بعشار من النوق حفل، وهي الحوامل، وكانت من أحب أموالهم إليهم، وأنفسها عندهم، لأنها تجمع الظهر، واللحم، واللبن، والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ[1]) قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يارسول الله، هذه أنفس أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال « قَدْ نَهَانِي اللهُ عَنْ ذَلِكَ » ثم تلا قوله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ[2]) الآية

وروى[3] مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يارسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال « يَاعَائِشَةُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجْرِيَ مَعِيَ جِبَالَ الدُّنْيَا ذَهَباً لَأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنِّي اخْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شِبَعِهَا وَفَقْرَ الدُّنْيَا عَلَى غِنَاهَا وَحُزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِهَا يَاعَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ يَاعَائِشَةُ إِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ لِأُولِي الْعَزْمِ

---

(١) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ـ الحديث: لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضعيفة

(٢) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل ـ الحديث: وفيه ثم تلا قوله تعالى ـ ولا تمدن عينيك ـ الآية لم أجد له أصلا

(٣) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله ألا تستطعم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث: وفيه ياعائشة ان الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر ـ الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا ياعائشة ان الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ومجالد مختلف في الاحتجاج به

---

(1) التكوير: ٤ (2) طه: ١٣١

مِنَ الرُّسُلِ إِلاَّ الصَّبْرَ عَلَى مَكْرُوهِ الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ مَحْبُوبِهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لِي إِلاَّ أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ فَقَالَ (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [1]) وَاللهِ مَالِي بُدٌّ مِنْ طَاعَتِهِ وَإِنِّي وَاللهِ لأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا بِجُهْدِي وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ »

وروي (١) عن عمر رضي الله عنه ، أنه حين فتح عليه الفتوحات ، قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها . البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : يا حفصة ، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ، فقالت بلى . قال : ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة ، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله ، حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر

(١) حديث ان عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب اذا قدمت عليك الوفود ـ الحديث : بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى الخ : لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو بن عبد الله القدرى متروك ـ الحديث : وللترمذى من حديث عائشة قالت ماأشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت قلت لم قالت اذكر الحال التى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ماشبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان ـ الحديث : وتقدم في آداب الاكل وللترمذى في الشمائل من حديث حفصة أنها سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم مسح تثنيه ثنتين فينام عليه ـ الحديث : ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين ـ الحديث : وتقدما في آداب المعيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ الا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على مافيها قلت فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحي القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد الغطريفي في جزئه المشهور فعقدها في عنقه ماعليه غيرها واسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة

(١) الاحقاف : ٣٥

بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة، اثنوها باثنتين؟ كما كنتم تثنونها؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه، فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين، إزارا ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب، حتى ظننا أن نفسه ستخرج

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر، وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقا، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما. وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن[1] أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَقَدْ كَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلاَ يَلْبَسُ إِلاَّ الْعَبَاءَةَ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ الْقَمْلُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْكُمْ »

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لَمَّا وَرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ » فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله، وهم أعرف خلق الله بالله، وبطريق الفوز في الآخرة

وفي حديث[2] عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد الا لعباءة ـ الحديث: باسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل

(٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ـ الآية قال تباللدينار والدرهم الحديث: وفيه فأي شيء ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تباللدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وانما قال المصنف انه حديث عمر لان عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي المال يتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [1]) قال صلى الله عليه وسلم « تَبًّا لِلدُّنْيَا تَبًّا لِلدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ » فقلنا يارسول الله ، نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأيّ شيء ندخر فقال صلى الله عليه وسلم « لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ » وفى حديث [1] حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِثَلَاثٍ هَمًّا لَا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَسْتَغْنِي أَبَدًا وَحِرْصًا لَا يَشْبَعُ أَبَدًا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ وَحَتَّى يَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ » وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له . يانبي الله ، لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه ؟ قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ لَا يَارَبِّ وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ »

وعن [3] ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه ، فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يَاجِبْرِيلُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمْسَى لِآلِ مُحَمَّدٍ كَفُّ سَوِيقٍ وَلَا سَفَّةُ دَقِيقٍ » فلم يكن كلامه

---

(١) حديث حذيفة من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث ـ الحديث : لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث شقاء لاينفد عناه وحرص لايبلغ غناه وأمل لايبلغ منتهاه وفي آخره زيادة

(٢) حديث لايستكمل عبد الايمان حتى يكون أن لايعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب اليه من كثرته : لم أجدله اسنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية على ابن طلحة مرسلا لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب اليه من ان يعرف فى غير ذات الله ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس وعلى بن أبى طلحة أخرج له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذا معضل

(٣) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ـ الحديث : فى نزول اسرافيل وقوله ان أحببت ان أسير معك جبال تهامة زمردا أو ياقوتا وذهبا وفضة ـ الحديث : تقدم مختصرا

---

(١) التوبة : ٣٤

بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمَرَ اللهُ الْقِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ ؟ » قال لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ماذكرت ، فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك ، إن أحببت أن أسيّر معك جبال تهامة زمردًا ، وياقوتا ، وذهبًا وفضة ، فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله . فقال « نَبِيًّا عَبْدًا » ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم لرجل[2] « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ »

وقال صلوات الله عليه[3] « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ تَرَكَ اللَّذَّاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ » . ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام[5] « أَرْبَعٌ لَا يُدْرَكْنَ إِلَّا بِتَعَبٍ الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَاضُعُ وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ وَقِلَّةُ الشَّيْءِ » . وإيراد جميع الأخبار الواردة فى مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فإن الأنبياء مابعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان

وأما الآثار : فقد جاء فى الأثر لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يسألوا مانقص من دنياهم . وفى لفظ آخر : مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله ، قال الله تعالى - كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس دون قوله ورغبه فى الآخرة وزاد فقهه فى الدين واسناده ضعيف

(٢) حديث ازهد فى الدنيا يحبك الله - الحديث : تقدم

(٣) حديث من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا : لم أجد له أصلا

(٤) حديث من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات - الحديث : ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بن أبى طالب

(٥) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة [illegible]

رضي الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد فى الدنيا
وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خيرا منكم. قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد فى الدنيا منكم .
وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد . وقال بلال بن سعد . كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها . وقال رجل لسفيان . أشتهى أن أرى عالما زاهدا . فقال ويحك ! تلك ضالة لا توجد . وقال وهب بن منبه . إن للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا ، العاشقين للجنة . وقال يوسف بن أسباط رحمه الله . إنى لأشتهى من الله ثلاث خصال . أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ، ولا يكون عليّ دين ، ولا على عظمى لحم . فأعطى ذلك كله

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها . فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه ؟ فبكى الفضيل وقال : أتدرون مامثلى ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها . وكذلك أنتم أردتم ذبحى على كبر سنى . موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير . كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، وليس له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام . وقالت امرأة أبى حازم لأبى حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب . فقال لها أبو حازم . من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك . قال الأمر أعجل من ذلك .

وقال إبراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب . الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح . فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا . وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ » . فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التـــواء لادار استواء ، ودار ترح لادار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ، ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل: لايخلص العمل لمتعبدحتى لا يفزع من أربعة أشياء: الجوع، والعرى، والفقر، والذل

وقال الحسن البصرى : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يطوله ثوب ، ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط . فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، ينـاجون ربهم في فكاك رقابهم : كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفـرها لهم . فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ماسلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه

بيـان

درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ، وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث

الدرجة الأولى : وهي السفلى منها ، أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ ، وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها . وهذا يسمى المتزهد . وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد. والمتزهد يذيب أولا نفسه ، ثم كيسه

---

(١) حديث ان الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا ـ الحديث : تقدم

والزاهد أولا يذيب كيسه ، ثم يذيب نفسه فى الطاعات، لا فى الصبر على مُفارقه .والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه. وتجذبه شهوته، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير

الدرجة الثانية : الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه. كالذى يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل .ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده، ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه . فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده، ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه، وهذا أيضا نقصان

الدرجة الثالثة :وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا . والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة، أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة . فهذا هو الكمال فى الزهد . وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة فى البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبى موسى عبد الرحيم . فى أي شيء تتكلم ! قال فى الزهد. قال فى أي شيء ! قال فى الدنيا . فنفض يده وقال · ظننت أنه يتكلم فى شيء ، الدنيا لا شيء ، إيش يزهد فيها

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز ، فشغله بنفسه ، ودخل الباب ونال القرب عند الملك ، حتى نفذ أمره فى جميع مملكته . أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه ، فى مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ، إن أكلت فلذتها فى حال المضغ، وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها فى المعدة ،ثم تنتهى إلى النتن والقذر ،ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل . فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها !

ونسبة الدنيا كلها ، أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا . إذ لا نسبة للمتناهى إلى ما لا نهاية له.

والدنيا متناهية على القرب. ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد . فكيف ومدة العمر قصيرة ، ولذات الدنيا مكدرة غير صافية ! فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد . فإذاً لايلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى مازهد فيه. ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدًّا به ولا يراه شيئا معتدًّا به إلا لقصور معرفته . فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة

فهذا تفاوت درجات الزهد . وكل درجة من هذه أيضا لها درجات، إذ تصبُّر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده . وأما انقسام الزهد بالأضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى : أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام، كعذاب القبر ومناقشة الحساب ، وخطر الصراط وسائر مابين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . إذ فيها [1] أن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء . فهذا هو زهد الخائفين ، وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص من الألم يحصـــــل بمجرد العدم

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه ، واللذات الموعودة فى جنته :من الحور ، والقصور ، وغيرها . وهذا زهد الراجين . فإن هؤلاء ماتركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له

الدرجة الثالثة :وهي العليا .أن لايكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلايلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى . وهو الذى أصبح وهمومه همّ واحد . وهو الموحد الحقيقي الذى لايطلب غير الله تعالى . لأن من طلب غير الله فقد عبده .وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه . وطلب غير الله من الشرك الخفي . وهذا زهد المحبين ، وهم العارفون ، لأنه لايحب

(١) حديث ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء :أحمد من حديث ابن عباس التقى مؤمنان علي باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير ـ الحديث : وفيه انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ماوصلت اليك حتى سال منى العرق مالو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت منه رواء وفيه دويد غير منسوب يحتاج الى معرفته قال أحمد حديثه مثله

الله تعالى خاصة إلا من عرفه. وكما أن من عرف الدينار والدرهم ، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما ، لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله ، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم ، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة ، وبين لذة التنعم بالحور العين ، والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحبُّ إلا لذة النظر ، ولا يؤثر غيره

ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به . والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور ، التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك ، لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل . ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول ، فلا نشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل ، حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل ، فنقول :

المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل . ولتفصيله مراتب ، بعضها أشرح لآحاد الأقسام ، وبعضها أجمل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبغي أن يزهد فيه ، حتى يزهد في نفسه أيضا . والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة . وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة ، والغضب ، والكبر ، والرياسة ، والمال ، والجاه ، وغيرها

وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس

وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم ، والقدرة ، والدينار ، والدرهم ، والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة . وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب . إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها

فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا ، فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [١]) ثم رده فى آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [٢]) ثم رده تعالى فى موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ [٣]) ثم رد الكل إلى واحد فى موضع آخر فقال (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ [٤]) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا . فينبغى أن يكون الزهد فيه

وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض ، وإنما يفارقه فى الشرح مرة ، والإجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها . ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا ، فقصر أمله لا محالة ، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ، فإن من أراد شيئا أراد دوامه . ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن فى هذه الحياة . فإذا رغب عنها لم يردها

ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا (رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ [٥]) فقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ [٦]) أى لستم تريدون البقاء إلا للمتاع الدنيا . فظهر عند ذلك الزاهدون ، وانكشف حال المنافقين

أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص ، وانتظروا إحدى الحسنيين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد ، حرصا على نصرة دين الله ، أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول . كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز . فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين فى الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت ، فقيل لهم (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ [٧]) فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذى

---

[١] ال عمران : ٤ (٢ ، ٣) الحديد : ٢٠ [٤] النازعات : ٤٠ (٥ ، ٦) النساء : ٧٧ [٧] الجمعه : ٨

[illegible] أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا ، أو ثلاثين سنة ، بتمتع الأبد ، استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه . وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون فى حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه . فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه ، أو على من كان يخاطبه .

فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس وهذا إشارة إلى الزهد فى الجاه خاصة وقال قاسم الجوعى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف . فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد . وهذا إشارة إلى الزهد فى شهوة واحدة . ولعمرى هي أغلب الشهوات على الأكثر ، وهي المهيجة لأكثر الشهوات

وقال الفضيل : الزهد فى الدنيا هو القناعة . وهذا إشارة الى المال خاصة

وقال الثوري : الزهد هو قصر الأمل . وهو جامع لجميع الشهوات . فإن من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء ، فيطول أمله . ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها

وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه . وما قصد بهذا حد الزهد ، ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للمضمون . وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث : الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة . وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا ، فهو صحيح . ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة ، أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات . فإن من العلوم ما لا فائدة فيه فى الآخرة ، وقد طولوها حتى ينقضى عمر الإنسان فى الاشتغال بواحد منها . فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده . وقال الحسن . الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى فذهب إلى أن الزهد هو التواضع . وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب ، وهو بعض أقسام الزهد .

وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال . وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب ، كما قال أويس ، ولا شك فى أنه أراد به ترك طلب الحلال

وقد كان يوسف بن أسباط يقول . من صبر على الأذى ، وترك الشهوات ، وأكل الخبز من الحـــلال ، فقد أخذ بأصل الزهد

وفى الزهد أقاويل وراء مانقلناه ، فلم نر فى نقلها فائدة . فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة ، فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق فى نفسه ، وأدركه بمشاهدة من قلبه ، لا بتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق ، واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته . وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة ، لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف ، فلا جرم الكلمات تختلف

وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التى هي مقام العبد فى نفسه ، والأحوال تختلف . فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف

وأما الحق فى نفسه فلا يكون إلا واحدا ، ولا يتصور أن يختلف . وإنما الجامع من هذه الأقاويل ، الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ، ماقاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل . وقد فصل مرة وقال . من تزوج ، أو سافر فى طلب المعيشة ، أو كتب الحديث ، فقد ركن إلى الدنيا . فجعل جميع ذلك ضدا للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [1]) فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى . وقال . إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة . فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه

فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ، ونفل ، وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض هو الزهد فى الحرام . والنفل هو الزهد فى الحلال . والسلامة هو الزهد فى الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام ، وذلك من الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس . ما الزهد ؟ قال التقوى . وأما بالإضافة إلى خفايا مايتركه . فلا نهاية للزهد فيه . إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس فى الخطرات ، واللحظات ، وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء . بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى

---

(١) الشعراء : ٨٩

فمن أقصى درجات زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه ، فقال له الشيطان ، أما كنت تركت الدنيا ، فما الذي بدا لك ؟ قال وما الذي تجدد ؟ قال توسدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرمى الحجر وقال . خذه مع ما تركته لك

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام ، أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس ، واستراحة حس اللمس . فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ، ففعل . فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت عليّ الدنيا . فبكى ونزع الصوف ، وعاد إلى ما كان عليه

وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العري أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان ، فأقامه صاحب الحائط ، فقال ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط

فإذاً درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها . وأقل درجاته الزهدُ في كل شبهة ومحظور وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور . فليس ذلك من درجاته في شيء . ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا ، فلا يتصوّر الزهد الآن

فإن قلت . مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله ، فكيف يتصور ذلك مع الأكل ، والشرب ، واللبس ، ومخالطة الناس ، ومكالمتهم ، وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى

فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا . ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء . ولا بقاء إلا بضروريات النفس . فمهما اقتصرتَ من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن ، وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله ، فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ، فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج . ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها ، حتى تسير بك إلى مقصدك . فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ، ولا تقصد التلذذ بل التقوّي على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد

وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ، فاعلم أن ذلك لا يضرك . إذا لم يكن قصدك التلذذ . فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ، ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ، ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه . فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره . ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار ، خيفة من الاستراحة به ، وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ، ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله . ولذلك كان داود الطائي له حب مكشوف فيه ماؤه ، فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا

فهذه مخاوف المحتاطين . والحزم في جميع ذلك الاحتياط . فإنه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة ، القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين

بيان

تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم : فالفضول كالخيل المسومة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها ، وهو قادر على المشي . والمهم كالأكل والشرب . ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول ، فإن ذلك لا ينحصر . وإنما ينحصر المهم الضروري . والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره ، وجنسه ، وأوقاته . فلا بد من بيان وجه الزهد فيه . والمهمات ستة أمور . المطعم ، والملبس ، والمسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه يطلب لأغراض ، وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له ، وكيفية الاحتراز منه ، في كتاب الرياء من ربع المهلكات . ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة

الأول المطعم : ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه . ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن

من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عرضه فني مقدار الطعام ، وجنسه ، ووقت تناوله

أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل . وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع ، عند شدة الجوع وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا

الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر ، أو أربعين يوما

الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط . وهذه رتبة ضعفاء الزهاد . ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا ، فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب . ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي ، فإنه ورث عشرين دينارا ، فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة . فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد

وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار . وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مدّ واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به . ومن لم يقدر على الاقتصار على مدّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب

وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول . فإذا ميّز من النخالة وصار حوارى فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله

وأما الأدم فأقله الملح ، أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان . وأعلاه اللحم أي لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين . فإن صار دائما ، أو أكثر من مرتين في الأسبوع ، خرج عن آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا . وأما بالإضافة إلى الوقت ، فأقله في اليوم والليلة مرة ، وهو أن يكون صائما . وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب . وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام ، أو أسبوعا وما زاد عليه . وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات

ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية

زهدهم فى المطاعم ، وتركهم الأدم . قالت [1] عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار . قيل لها فبم كنتم تعيشون ؟ قالت بالأسودين . التمر والماء . وهذا ترك اللحم، والمرقة والأدم

وقال [2] الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ، ويلعق أصابعه ، ويأكل على الأرض، ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ »

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فَخُبْزُ الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير

وقال الفضيل [3] . ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول . يابنى إسرائيل ، عليكم بالماء القراح، والبقل البرى وخبز الشعير وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف فى المطعم والمشرب فى ربع المهلكات فلا نعيده

[4] ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء ، أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال « أَمَا إِنِّى لَسْتُ أُحَرِّمُهُ وَلَكِنْ أَتْرُكُهُ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى »

وأتى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف ، فقال اعزلوا عنى حسابها

وقد قال يحيي بن معاذ الرازى : الزاهد الصادق قوته ماوجد ، ولباسه ماستر، ومسكنه حيث أدرك . الدنيا سجنه ،والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه . والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره

---

(١) حديث عائشة كانت تأتى أربعون ليلة ومايوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولانار الحديث : ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتى على آل محمد الشهر مايرى فى بيت من بيوته دخان الحديث وفى رواية له مايوقد فيه بنار ولأحمد كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد فى بيت من بيوته نار وفى رواية له ثلاثة أهلة

(٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ـ الحديث : تقدم دون قوله انما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن انما هو من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر : تقدم

(٤) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ـ الحديث : تقدم

والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ،والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى

المهم الثانى :الملبس.وأقل درجته مايدفع الحر ،والبرد ،ويستر العورة · وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص ،وقلنسوة ، ونعلان . وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل : وماجاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد· وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت . فإذا صار صاحب قميصين ،وسراويلين،ومنديلين ،فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار

أما الجنس فأقله المسوح الخشنة ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعلاه القطن الغليظ

وأما من حيث الوقت فأقصاه مايستر سنة ، وأقله مايبقى يوما · حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر ، وإن كان يتسارع الجفاف إليه . وأوسطه مايتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب مايبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مضاد للزهد ، إلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه ·فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدق به . فإن أمسكه لم يكن زاهدا . بل كان محبا للدنيا

ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس. قال أبو بردة[1]:أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا ،وإزارا غليظا ،فقالت .قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وقال صلى الله عليه وسلم[2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُتَبَذِّلَ الَّذِى لَا يُبَالِى مَا لَبِسَ » . وقال عمرو بن الأسود العنسى . لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام بليل على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفى من طعام أبدا . فقال[3] عمر : من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود

---

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين: الشيخان وقد تقدم فى آداب المعيشة

(٢) حديث ان الله يحب المتبذل الذى لا يبالى مالبس :لم أجد له أصلا

(٣) حديث عمر من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى هدى عمرو ابن الاسود رواه أحمد باسناد جيد

وفي الخبر (١) ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيباً »

(٢) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . (٣) وكانت قيمة ثوبيه عشرة. (٤) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا (٥) واشترى سراويل بثلاثة دراهم . (٦) وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف . وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد . وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر (٧) كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات

(٨) ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس ،قيمته مائتا

---

(١) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي ذر باسناد جيد دون قوله وان كان عنده حبيبا

(٢) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم :أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس الى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ـ الحديث : وإسناده ضعيف

(٣) حديث كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم :لم أجده

(٤) حديث كان ازاره أربعة أذرع ونصفا: أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصف ـ الحديث: وفيه ابن لهيعة وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له ازار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في دراعين وشبر وفيه محمد بن عمر الواقدي

(٥) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم :المعروف انه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا انه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح

(٦) حديث كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ :تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة البرد والحبرة وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج الى الحرورية وعليه أحسن مايكون من حلل اليمن وقل رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مايكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما ازار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب المعيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه والترمذي وللبزار من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن ابراهيم لايعرف قاله الذهبي

(٧) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات: الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات

(٨) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه ـ الحديث:

درهم . فكان أصحابه يلمسونه ويقولون : يارسول الله ، أنزل عليك هذا من الجنة؟ تعجبا . وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الاسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحريم كما [1] لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال . [2] وكما قال لعائشة فى شأن بريرة « اشْتَرِطِي لِأَهْلِهَا الْوَلَاءَ » فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه ،

وكما [3] أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها ، لتأكيد أمر النكاح

وقد [4] صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها علم . فلما سلم قال « شَغَلَنِي النَّظَرُ إِلَى هَذِهِ اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ » يعنى كساءه . فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شراك نعله قد أخلق ، فأبدل بسير جديد ، فصلى فيه ، فلما سلم قال « أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الْخَلَقَ وَانْزِعُوا هَذَا الْجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ »

[5] ولبس خاتما من ذهب ، ونظر إليه على المنبر نظرة ، فرمى به ، فقال « شَغَلَنِي هَذَا عَنْكُمْ نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ »

وكان صلى الله عليه وسلم قد [6] احتذى مرة نعلين جديدين ، فأعجبه حسنهما . فخر ساجدا وقال « أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقُتَنِي » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه

وعن [7] سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء . فلما لبسها قال « انْظُرُوا مَا أَحْسَنَهَا مَا أَلْيَنَهَا » قال فقام إليه أعرابي فقال : يارسول الله هبها لى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به ، قال

---

(١) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه : متفق عليه وقد تقدم

(٢) حديث قال لعائشة فى شأن بريرة اشترطى لأهلها ـ الحديث : متفق عليه من حديثها

(٣) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٤) حديث صلى فى خميصة لها علم ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم فى الصلاة

(٥) حديث لبس خاتما فنظر اليه على المنبر فرمي به وقال شغلنى هذا عنكم ـ الحديث : تقدم

(٦) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ـ الحديث : تقدم

(٧) حديث سنان بن سعد حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أنمار ـ الحديث : أبو داود الطيالسى والطبرانى من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهى عند الطبرانى فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع فى كثير من نسخ الاحياء سيار بن سعد وهو غلط

فدفعها إليه ، وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فمات صلى الله عليه وسلم وهي في الحاكة

وعن[١] جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحا ، وعليها كساء من وبر الإبل ؛ فلما نظر إليها بكى وقال « يَافَاطِمَةُ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الأَبَدِ » فأنزل عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [(١)])

وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي الْمَلَأُ الأَعْلَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الْخُلْقَانَ وَيَتَّبِعُونَ الرُّهْبَانَ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَفْئِدَتُهُمْ عِنْدَ الْعَرْشِ »

فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس ، وقد أوصى أمته عامة باتباعه إذ قال[٣] « مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي » وقال[٤] « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » وقال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [(٢)]) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] عائشة رضي الله عنها خاصة وقال « إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزِعِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وعدّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم

واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ، ولبسه وهو في الخلافة ، وقطع كميه من الرسغين وقال : الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه

وقال الثوري وغيره : البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ، ولا يحقرك عند الجهال .

---

(١) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحا ـ الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف

(٢) حديث ان من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه ـ الحديث : تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه

(٣) حديث من أحبني فليستن بسنتي : تقدم في النكاح

(٤) حديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ـ الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية

(٥) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم

---

(١) الضحى : ٥ (٢) آل عمران : ٣١

وكان يقول : إن الفقير ليمر بي وأنا أصلي فأدعه يجوز ، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز .

وقال بعضهم : قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابي ماخدمني ، وشرها ماخدمته .

وقال بعض السلف : البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها مايشهرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني ، الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو مايستر العورة ، وثوب للنفس وهو مايطلب لينه ، وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه

وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما . وكان الخواص لايلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه

وقال بعض السلف : أول النسك الزي . وفي الخبر . البذاذة من الإيمان . وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى ، وابتغاء لوجهه ، كان حقا على الله أن يدخر له من عبقري الجنة في تخات الياقوت

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . قل لأوليائي لايلبسوا ملابس أعدائي ، ولايدخلوا مداخل أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال . انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ، وكان عليه ثياب رقاق . وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته ، فجعل يتكلم في الزهد ، فوضع أبو ذر راحته على فيه ، وجعل يضرط به .. فغضب ابن عامر ، فشكاه إلى عمر . فقال أنت صنعت بنفسك . تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة !

وقال علي كرم الله وجهه . إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ، ليقتدي بهم الغني ، ولا يزري بالفقير فقره . ولما عوتب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع ، وأجدر أن يقتدي به المسلم .

(١) ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَاداً لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ »

---

(١) حديث نهى عن التنعم وقال ان عباد الله ليسوا بالمتنعمين : أحمد من حديث معاذ وقد تقدم

وروي [1] فضالة بن عبيد وهو والى مصر ، أشعث حافيا ، فقيل له أنت الأمير وتفعل هذا ! فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه ، وأمرنا أن نحتفى أحيانا .

وقال علي لعمر رضي الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبيك فأرقع القميص ، ونكس الإزار ، واخصف النعل ، وكل دون الشبع

وقال عمر : اخشوشنوا ، وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر

وقال علي كرم الله وجهه : من تزيا بزي قوم فهو منهم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَفِي النَّارِ وَلَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَراً » . وقال [4] أبو سليمان الداراني . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا مُرَاءٍ أَوْ أَحْمَقُ »

وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة

ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، وعليه جبة صوف ، فقال له قتيبة . ما دعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت . فقال أكلمك ولا تجيبني . فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسي ، أو فقرا فأشكو ربي . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض . وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سراويلين ، فإذا غسل أحدهما لبس الآخر ، حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه . مالك لا تلبس الجيد من الثياب ! فقال وما للعبد والثوب

---

(١) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفي أحيانا : أبو داود باسناد جيد

(٢) حديث ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ـ الحديث : وآخره أولئك شرار امتي وقد تقدم

(٣) حديث ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه ـ الحديث : مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ

(٤) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق : لم أجد له اسنادا

الحسن ، فإذا عتق فذه والله ثيابي لاأبلى أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أنه كان له جبة شعر وكساء شعر ، يلبسهما من الليل إذا قام يصلى

وقال الحسن لفرقد السبخي : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ؟ بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحي بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ، ويغسلها ويلفقها ويلبسها . فقلت إنك تكسى خيرا من هذا . فقال : ماضرهم ماأصابهم فى الدنيا ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة . فجعل يحي بن معين يحدث بها ويبكى

المهم الثالث المسكن : وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات :

أعلاها : أن لايطلب موضعا خاصا لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة

وأوسطها : أن يطلب موضعا خاصا لنفسه ، مثل كوخ مبنى من سعف أوخص أو مايشبهه

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية . إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة ، لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن طلب التشييد ، والتجصيص ، والسعة ، وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع ، فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن

فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص ، أو القصب ، أو بالطين ، أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق ، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات ، بأن يكون مملوكا ، أو مستأجرا ، أو مستمارا . وللزهد مدخل فى جميع ذلك

وبالجملة كل مايراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة . وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته . وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين . والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ، ودفع الأعين والأذى . وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا . وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا

وقد قيل أوّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعنى بالتدريز كف دروز الثياب ، فإنها [1] كانت تشل شلا . والتشييد هو البنيان

---

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبرانى والحاكم ان ابن عمر قطع مافضل عن الاصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء ففى الصحيحين من حديث أنس فى قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل

بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد . وقد جاء في الخبر . يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] العباس أن يهدم علية كان قد علا بها [2] ومر عليه السلام بجنبذة معلاة . فقال « لِمَنْ هٰذِهِ ؟ » قالوا لفلان . فلما جاءه الرجل أعرض عنه ، فلم يكن يقبل عليه كما كان . فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم . فأخبر ، فذهب فهدمها . فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها ، فأخبر بأنه هدمها ، فدعا له بخير

وقال [3] الحسن . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [4] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرًّا أَهْلَكَ مَالَهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ » . [5] وقال عبد الله بن عمر . مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال « مَا هٰذَا ؟ » قلنا خص لنا قد وهي . فقال « أَرَى الْأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ ذٰلِكَ »

واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له . لو بنيت ؟ فقال هذا كثير لمن يموت

وقال الحسن . دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له لو أصلحته ؟ فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [6] « مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ

قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة ـ الحديث : ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوكف المسجد

(١) حديث أمر العباس ان يهدم علية له كان قد علاها : الطبراني من رواية أبي العالية ان العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها ـ الحديث : وهو منقطع

(٢) حديث مر بجنبذة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه ـ الحديث : أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة ـ الحديث : والجنبذة القبة

(٣) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث : ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلا وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عني أو سره ان ينظر إلي فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث : واسناده ضعيف

(٤) حديث اذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين : أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد خضر له في الطين واللبن حتى يبني

(٥) حديث عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا قد وهى ـ الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه

(٦) حديث من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة ان يحمله : الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد فيه لين وانقطاع

ٱلْقِيَامَةِ » وفى الخبر [١] « كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ فِي ٱلْمَاءِ وَالطِّينِ »

وفى قوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا [١]) أنه الرياسة والتطاول فى البنيان

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِلَّا مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله « اتَّسِعْ فِي السَّمَاءِ » أى فى الجنة . ونظر عمر رضي الله عنه فى طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وآجر، فكبر وقال . ما كنت أظن أن يكون فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ [٢]) يعنى به الآجر

ويقال إن فرعون هو أوّل من بُني له بالجص والآجر ، وأوّل من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة . وهذا هو الزخرف

ورأى بعض السلف جامعا فى بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ، ثم رأيته مبنيا من رهص ، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن

وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه ، وقصر أمله ، وزهده فى إحكام البنيان . وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده . وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله

---

(١) حديث كل نفقة العبد يؤجر عليها الا ما أنفقه فى الماء والطين : ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت باسناد جيد بلفظ الا فى التراب أو قال فى البناء

(٢) حديث كل بناء وبال على صاحبه الا ما أكن من حر أو برد : أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ الا ما لا يعنى ما لا بد منه

(٣) حديث قال الرجل الذى شكى اليه ضيق منزله اتسع فى السماء : قال المصنف اى فى الجنة أبو داود فى المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال شكى خالد بن الوليد فذكره وقد وصله الطبرانى فقال عن اليسع ابن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد الا انه قال ارفع الى السماء واسأل الله السعة وفى اسناده لين

---

(١) القصص : ٨٣ (٢) القصص : ٣٨

صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف وقال عمرو بن دينار . إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك . إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال . لولا نظر الناس لما شيدوا ، فالنظر إليه معين عليه

وقال الفضيل: إنى لأعجب ممن بنى وترك ، ولكنى أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتى قوم يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويستعملون البراذين ، يصلون إلى قبلتكم ، ويموتون على غير دينكم

المهم الرابع :أثاث البيت . وللزهد فيه أيضا درجات: أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه ؛ فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه ، فرمى بالكوز . وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود . فإذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات ، وهو الخزف فى كل ما يكفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به

وأوسطها :أن يكون له أثاث بقدر الحاجة ،صحيح فى نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ، ويشرب فيها ،ويحفظ المتاع فيها . وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف

وأعلاها :أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس. فإن زاد فى العدد أو فى نفاسة الجنس ، خرج عن جميع أبواب الزهد ، وركن إلى طلب الفضول

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت [1] عائشة رضي الله عنها . كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم ، حشوها ليف .

وقال الفضيل [2] : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ، ووسادة من أدم ، حشوها ليف

---

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف · أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام ، فدمعت عينا عمر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مَا الَّذِي أَبْكَاكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ » قال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله ، وصفيه ، ورسوله ، نائم على سرير مرمول بالشريط . فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَا تَرْضَى يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ ؟ » قال بلى يارسول الله . قال « فَذَلِكَ كَذَلِكَ »

ودخل رجل على أبي ذر ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال ياأبا ذر ، ماأرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا . فقال إنه لابد من متاع مادمت ههنا . فقال إن صاحب المنزل لايدعنا فيه

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : مامعك من الدنيا؟ فقال معي عصاي أتوكأ عليها ، وأقتل بها حية إن لقيتها . ومعي جرابي أحمل فيه طعامي . ومعي قصعتي آكل فيها ، وأغسل فيها رأسي وثوبي . ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر . صدقت رحمك الله

[2] وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها ، فرأى على باب منزلها سترا : وفي يديها قلبين من فضة . فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي . فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع . فقال « مِنْ أَجْلِ

الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرفه

(١) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه ـ الحديث : متفق عليه من حديثه وقد تقدم

(٢) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع ـ الحديث : لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد انه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلي أنظر فارجعه ـ الحديث : والنسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب ـ الحديث : وفيه انه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وانه خرج ولم يقعد فامرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار

السِّتْرِ وَالسِّوارَيْنِ » فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت . قد تصدقت بهما ، فضعهما حيث ترى . فقال « اذْهَبْ فبِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ » فباع القلبين بدرهمين ونصف ، وتصدق بهما عليهم . فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال « بأبى أَنْتِ قَدْ أَحْسَنْتِ » . [1] ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه وقال « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أَرْسِلِي بِهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ »

[2] وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية . فما زال يتقلب ليلته . فلما أصبح قال لها « أَعِيدِي الْعَبَاءَةَ الْخَلَقَةَ وَنَحِّي هَذَا الْفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَسْهَرَنِي اللَّيْلَةَ »

وكذلك [3] أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا ، فبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضي الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ، ثم قال « مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ »

وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه

المهم الخامس: المنكح . وقد قال قائلون . لا معنى الزهد في أصل النكاح ولا في كثرته وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال . قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء، فكيف نزهد فيهن!

---

(١) حديث رأى على باب عائشة سترا فهتكه ـ الحديث: الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها

(٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية ـ الحديث : ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت علي امرأة من الانصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت الي بفراش حشوه صوف فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذا ـ الحديث : وفيه فأمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه عباد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل

(٣) حديث أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله ـ الحديث : وفيه ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده : أحمد من حديث عائشة باسناد حسن انه قال في مرضه الذي مات فيه ياعائشة مافعلت بالذهب فجاء مابين الخمسة الى الثمانية الى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ماظن محمد ـ الحديث: وزاد أنفقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنانير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يانبي الله مالك ساهم الوجه فقال من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش وفي رواية أمسينا ولم ننفقها

ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشر سرية

والصحيح ماقاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ماشغلك عن الله من أهل .ومال، وولد ، فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله

وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح ؛ فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ،ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن ، والأنس بهن ، بحيث يشتغل عن ذكر الله ، فترك ذلك من الزهد . فإن علم أن المرأة لاتشغله عن ذكر الله ،ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر ، والمضاجعة ، والمواقعة ، فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لاتضره ، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء ، لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته ، من غير خوف آفة أخرى وهذا ماعناه سهل لامحالة . ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، في أنه لا يشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر . ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ! فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان . فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله . وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن ، أو جمال المرأة ، فلينكح واحدة غير جميلة ، وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان . الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة ، على المرأة الجميلة والشريفة،

---

(١) حديث كان لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والانفاق عليهن : تقدم في النكاح

وقال الجنيد رحمه الله . أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بثلاث ، وإلا تغير حاله . التكسب ، وطلب الحديث ، والتزوج . وقال : أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه . فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل ، فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا

المهم السادس : مايكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه

أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ، ليتوصل به إلى الاستعانة فى الأغراض والأعمال . وكل من لا يقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته ، وافتقر إلى من يخدمه ، افتقر إلى جاه لامحالة فى قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته . وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه ، وهذا له أول قريب ، ولكن يتمادى به إلى هاوية لاعمق لها . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإنما يحتاج إلى المحل فى القلوب إما لجلب نفع ، أو لدفع ضر ، أو لخلاص من ظلم

فأما النفع فيغنى عنه المال . فإن من يخدم بأجرة يخدم ، وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر . وإنما يحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم بغير أجرة

وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ، ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له فى قلوبهم ، أو محل له عند السلطان . وقدر الحاجة فيه لا ينضبط ، لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب . والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا . فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل فى القلوب مايدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ؟ فأما التوهمات والتقديرات التى تحوج إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب ، فهي أوهام كاذبة . إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى فى بعض الأحوال . فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذاً طلب المحل فى القلوب لا رخصة فيه أصلا . واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر ، فليحترز من قليله وكثيره

وأما المال : فهو ضروري فى المعيشة . أعنى القليل منه . فإن كان كسوبا ، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب . كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام ،

هذا شرط الزهد . فإن جاوز ذلك إلى مايكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين فى التوكل ، فأمسك منها مقدار مايكفى ريعه لسنة واحدة ، فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد ، بشرط أن يتصدق بكل مايفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد . فإن شرط التوكل فى الزهد كما شرطه أويس القرنى رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعنى به أن ماوعد للزاهدين فى الدار الآخرة من المقامات المحمودة لاينا له . وإلا فاسم الزهد قد لايفارقه بالإضافة إلى مازهد فيه من الفضول والكثرة .

وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لاينبغى أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا ، وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء ، معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ، ولا يلزمه كل ذلك فى عياله . نعم لاينبغى أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة

فإذاً مايضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور . بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع . وما بينهما درجات متشابهة : فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر . وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر . والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه . ومن استبرأ لدينه ، وترك مايريبه إلى مالا يريبه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة ، فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لامحالة

والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا : بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ، لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ماروي أن ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة : فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا ، فلم يقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه . لو سألت خليلك لأعطاك . فقال يارب : عرفت مقتك للدنيا ، فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله تعالى إليه . ليس الحاجة من الدنيا فإذاً قدر الحاجة من الدين . وما وراء ذلك وبال فى الآخرة ، وهو فى الدنيا أيضا كذلك

يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء، وما عليهم من المحنة فى كسب المال وجمعه وحفظه، واحتمال الذل فيه وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداءه، وقد يستعينون به على المعصية، فيكون هو معينا لهم عليها

ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز، لايزال ينسج على نفسه حيا، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا، فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه. فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه، حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال، والجاه، والأهل، والولد، وشماتة الأعداء، ومراآة الأصدقاء، وسائر حظوظ الدنيا. فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه، فقصد الخروج من الدنيا، لم يقدر عليه، ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لايقدر على قطعها. ولو ترك محبوبا من محابه باختياره، كاد أن يكون قاتلا لنفسه، وساعيا فى هلاكه، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها، فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة. فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار، ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين. والذى ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه، ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره. فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب، مخصوصا به لابطريق السراية إليه من غيره

فهذا أول عذاب يلقاه قبل مايراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين، وجوار رب العالمين. فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى. وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [1]) فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب. وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار. فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه! فنسأل الله تعالى أن يقرر أسماعنا [1] ما نفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قيل له. أحبب من أحببت فإنك مفارقه

وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر

---

(١) حديث نفث فى روعه أحبب من أحببت فانك مفارقه : تقدم

(١) التطفيف : ١٥

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه ، إهلاك دود القز نفسه ، رفضوا الدنيا بالكلية . حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر . كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء ، لو رأيتموهم قلتم مجانين . ولو رأوا أخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق . ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد علي قلبي

فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده . والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ[1]) وقال عز وجل (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[2]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ[3]) فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم . ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك . فقال أخرج مالك والحقني . فقال لا أستطيع . فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغني الجنة . أو قال : بشدة

وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ، ملكان بالمشرق ، وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم بالمشرق . يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أقصر . ويقول الآخر . اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت ، وابنوا للخراب . ويقول الآخر . كلوا وتمتعوا لطول الحساب

بيان

علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد . وليس كذلك . فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ، ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ، ونظرهم إليه ، ومدحهم له . فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا ،

(١) يونس : ٧ (٢) الكهف : ٢٨ (٣) النجم : ٢٩ ، ٣٠

حتى يكمل الزهـــد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا . بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة : والثياب الرفيعة ، كما قال الخوّاص فى وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ، ولبسوا الفاخر من اللباس، يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، ائلا ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا ، فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم ، وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق ، وألجؤا إلى المضايق . وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين ؛ لم يعنوا بتصفية أسرارهم ، ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم ، فغلبتهم ، فادعوها حالا لهم فهم مائلون إلى الدنيا ، متبعون للهوى : فهذا كله كلام الخواص رحمه الله

فإذاً معرفة الزهد أمر مشكل . بل حال الزهـد على الزهد مشكل . وينبغى أن يعول فى باطنه على ثلاث علامات

العلامة الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود . كما قال تعالى (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ[1]) بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده

العلامة الثانية : أن يستوي عنده ذامّه ومادحه . فالأوّل علامة الزهـد فى المال والثانى علامة الزهـد فى الجـاه

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة . إما محبة الدنيا . وإما محبة الله . وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان . وكل من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشتغل بغيره. ولذلك قيل لبعضهم . إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال . إلى الأنس بالله فأما الأنس بالدنيـا وبالله فلا يجتمعـان . وقد قال أهل المعرفة . إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا ، وعمل لهما . وإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره ، أبغض الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها . ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام . اللهم إنى أسألك

---

(١) الحديد : ٢٣

إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس ، وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقام العارفين . والزاهد لابد وأن يكون فى أحد هذين المقامين . ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم . ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا.

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان. أكان داود الطائى زاهدا ؟ قال نعم. قلت قد بلغنى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا ، فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ! فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ! وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها . فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه ، خوفا على قلبه وعلى دينه ، فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه. وآخره أن يترك كل ما سوى الله ، حتى لا يتوسد حجرا ، كما فعله المسيح عليه السلام .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذونٌ فيه ،وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ، فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذاً علامة الزهد استواء الفقر والغنى ، والعز والذل، والمدح والذم . وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها.

وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي ، فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا.

وقال يحي بن معاذ : علامة الزهد ، السخاء بالموجود

وقال ابن خفيف : علامته ، وجود الراحة فى الخروج من الملك.

وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف

وقال أبو سليمان : الصوف علَم من أعلام الزهد ،فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم ،وفى قلبه رغبة خمسة دراهم

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد، قصر الأمل

وقال سرى: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه

وقال النصراباذى : الزاهد غريب فى الدنيا ، والعارف غريب فى الآخرة

وقال يحي بن معاذ : علامة الزهد ثلاث . عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة

وقال أيضا : الزاهد لله يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر

وقال له رجل . متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزهد ، وأقعد مع الزهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك . فأما مالم تبلغ هذه الدرجة ، فجلوسك على بساط الزاهدين جهل . ثم لا آمن عليك أن تفتضح

وقال أيضا : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها . والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها

وقال السرى : مارست كل شىء من أمر الزهد ، فنلت منه ماأريد إلا الزهد فى الناس ، فإنى لم أبلغه ولم أطقه

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا . وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا

فهذا ماأردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهد لايتم إلا بالتوكل ، فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى

كتاب التوحيد والتوكل

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع للسماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد ، الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ماعداه، والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه ، علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلا على الله رزقها . فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن ، وبه كفيل ، توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين . بل هو من معالى درجات المقربين . وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل . ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع . والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغماس فى غمرة الجهل . وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل ، والشرع ، فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء ، الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا

ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

بيان

فضيلة التوكل

أما من الآيات فقد قال تعالى (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١]) وقال عز وجل (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [٢]) وقال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [٣]) وقال سبحانه وتعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [٤]) وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه . فمن الله تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم . فإن المحبوب لا يعذب ، ولا يبعد ولا يحجب

وقال تعالى (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [٥]) فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل ، وهو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً [٦])

وقال عز وجل (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٧]) أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه ، والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .. وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [٨]) بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ [٩]) وقال عز وجل (وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ [١٠]) وقال عز وجل (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ [١١])

وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه [١] ابن مسعود « أُرِيتُ الْأُمَمَ فِي

(كتاب التوحيد والتوكل)

(١) حديث ابن مسعود اريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملؤا السهل والجبل ـ الحديث : رواه ابن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس

(١) المائدة : ٢٣ (٢) ابراهيم : ١٢ (٣) الطلاق : ٣ (٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) الزمر : ٣٦ (٦) الدهر : ١ (٧) الانفال : ٤٩ (٨) الأعراف : ١٩٤ (٩) العنكبوت : ١٧ (١٠) المنافقون : ٧ (١١) يونس : ٣

الْمَوْسِمِ فَرَأَيْتُ أُمَّتِي قَدْ مَلَؤُا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْأَتُهُمْ فَقِيلَ لِي أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ نَعَمْ قِيلَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قيل من هم يارسول الله ؟ قال « الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة وقال . يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ » فقام آخر فقال . يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا عِنْدَ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ »

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه [4] كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ » ويقول « بِهَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا [1]) الآية

---

(١) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ـ الحديث : الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ـ الحديث : الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه أبو حاتم

(٣) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه : الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٤) حديث كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها : الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزه عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام انما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه

---

(١) طه : ١٣٢

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنِ اسْتَرْقَى وَاكْتَوَى »

وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام ، وقد رمي إلى النار بالمنجنيق . ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا . وفاءً بقوله . حسبي الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (١))

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . ياداود مامن عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض ، إلا جعلت له مخرجا

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن جبير : لدغتني عقرب ، فأقسمت عليّ أمي لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ

وقرأ الخوّاص قوله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (٢)) إلى آخرها فقال : ماينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى

وقيل لبعض العلماء في منامه . من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته

وقال بعض العلماء : لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك

وقال يحي بن معاذ : في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد . وقال إبراهيم بن أدهم . سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرني أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب ، قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة

وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الادب

---

(١) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى : الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى والطبراني واللفظ له الا أنه قال أو من حديث المغيرة بن شعبة وقال الترمذي من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل وقال النسائي ماتوكل من اكتوى أو استرقى

---

(١) النجم : ٣٧ (٢) الفرقان : ٥٨

بيان

حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان. وجميع أبواب الإيمان لاتنتظم إلا بعلم ، وحال ، وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوي سمي يقينا . ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك . له الملك. والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك . وله الحمد ، فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه ، غالبا عليه

فأما التوحيد فهو الأصل . والقول فيه يطول . وهو من علم المكاشفة . ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها. فإذاً لا نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة . وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له فنقول :

للتوحيد أربع مراتب : وهو ينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب

فالرتبة الأولى : من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه ، أو منكر له ، كتوحيد المنافقين

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار

والرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا . وإذا لم ير نفسه

لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق

فالأول : موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان

والثانى : موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ، ولم تضعف بالمعاصى عقدته . ولهذا العقد حيلٌ يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة . وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب ، وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما . وهو فى مقابلة المبتدع ، ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام . وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لا تنحل عقدته

والثالث : موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا ، إذا انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا . وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد ، بل في صنعة تلفيق الكلام الذى به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة

والرابع : موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير ، بل من حيث إنه واحد . وهذه هي الغاية القصوى فى التوحيد

فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ،

وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها ، بل إن أكل فهو مرّ المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ، ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن . لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق

القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة . وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده . وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه . إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ [1]) وبقوله عزوجل (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [2])

وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر ، وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين ، لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير ، والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق

فإن قلت : كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا ، وهو يشاهد السماء ، والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر . ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة . نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار . وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه ، وجسده ، وأطرافه وعروقه ، وعظامه ، وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه إنسان واحد . فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد . وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه ، وعروقه ، وأطرافه ، وتفصيل روحه ، وجسده ، وأعضائه . والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق ، وكأنه في عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة في تفرقة

(1) الأنعام : ١٢٥ (2) الزمر : ٢٢

فكذلك كل مافي الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة. فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير. وبعضها أشد كثرة من بعض. ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا

ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك. كما أنك إذا آمنت بالنبوة، وإن لم تكن نبيا، كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك

وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر. والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج، حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال. فيماذا أنت؟ فقال أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل، وقد كان من المتوكلين، فقال الحسين. قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال

فإن قلت: فلابد لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول،

أما الرابع: فلا يجوز الخوض في بيانه. وليس التوكل أيضا مبنيا عليه. بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول: وهو النفاق فواضح.

وأما الثاني: وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه

وأما الثالث: فهو الذي ينبني عليه التوكل. إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب

وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق، ورزق، وعطاء، ومنع، وحياة، وموت، وغنى، وفقر، إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل، لا شريك له فيه. وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره،

بل كان منه خوفك ، وإليه رجاؤك ، وبه ثقتك ، وعليه اتكالك . فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر

وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما : الالتفات إلى اختيار الحيوانات ، والثانى : الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها . وهذا كله شرك فى التوحيد ، وجهل بحقائق الأمور . ولذلك قال تعالى (فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [١]) قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهى إلى المحرك الأول الذى لامحرك له ، ولاهو متحرك فى نفسه عز وجل . فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتحز رقبته ، فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لامن محرك القلم ، وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه ، وإنما هو مسخر فى يد الكاتب ، لم يلتفت إليه ، ولم يشكر إلا الكاتب . بل ربما يدهشه فرح النجاة ، وشكر الملك والكاتب ، من أن يخطر بباله القلم ، والحبر ، والدواة . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والمطر ، والغيم ، والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة ، كتسخير القلم فى يد الكاتب . بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع . والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب ، لقوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ [٢])

فإذا انكشف لك أن جميع مافى السموات وما فى الأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة

---

(١) العنكبوت : ٦٥ (٢) الانفال : ١٧

الثانية ، وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ، ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك، وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك ، إن شاء حز رقبتك ، وإن شاء عفا عنك ، فكيف لاتخافه ، وكيف لاترجوه ، وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ويقول له أيضا : نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر ، فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ؟

وعند هذا زل أقدام الأكثرين ، إلا عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا . وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد، فترى رأس القلم يسود الكاغد ! ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد ، فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها

فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ، ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب وهو جهل محض . بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ! بقدرته التى بها نطق كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون . ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لايجاوز الأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ، ولا هو عربي ولا عجمي

فإن قلت . فهذه أعجوبة لايقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟

فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر . وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى . فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لانهاية له .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ[1]) الآية. ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار . وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجي بخفاياه ، فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سرّ لنا لما قال صلى الله عليه وسلم[1] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون . ولما[2] نهى عن إفشاء سر القدر ولما قال[3] « إِذَا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » ولما[4] خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار

فإذاً عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان

أحدهما : استحالة إفشاء السر

والثانى : خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ولكنا فى المثال الذى كنّا فيه ، وهي حركة القلم ، نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه اسود وجهه بالحبر . مابال وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغد. ماأنصفتنى فى هذه المقالة ، فإنى ماسودت وجهى بنفسى ، ولكن سل الحبر ، فإنه كان مجموعا فى المحبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا . فقال صدقت

فسأل الحبر عن ذلك فقال. ماأنصفتنى ، فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا ، عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى عليّ القلم بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى ، وأجلانى عن بلادى

---

(١) حديث لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث النهى عن افشاء سر القدر : ابن عدى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره لفظ أبى نعيم وقال ابن عدى لا تكلموا فى القدر فانه سر الله ـ الحديث : وهو ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث اذا ذكر النجوم فأمسكوا واذا ذكر القدر فأمسكوا ـ الحديث : الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وتقدم فى العلم

(٤) حديث انه خص حذيفة ببعض الاسرار : تقدم

---

(١) الكهف : ١٩٠

وفرق جمعي ، وبددني كما ترى على ســــاحة بيضــاء ، فالسؤال عليه لا عليّ . فقال صدقت

ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه ، وإخراج الحبر من أوطانه . فقال . سل اليد والأصابع ، فإني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتني اليد بسكين ، فنحت عني قشري ، ومزقت عني ثيابي ، واقتلعتني من أصلي ، وفصلت بين أنابيبي ، ثم برتني وشقت رأسي ، ثم غمستني فى سواد الحبر ومرارته ، وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ، ولقد نـثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك ، فتنح عني وسل من قهرني . فقــال صدقت

ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد . ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم ، أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنمــا أنا مركب مسخر ، ركبني فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني وتجول بي فى نواحي الأرض . أما ترى المــدر ، والحجر ، والشجر ، لا يتعدى شيء منهــا مكانه . ولا يتحرك بنفسه ، إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر ؟ أما ترى أيدي الموتى تساويني فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا أيضا من حيث أنا لا معــاملة بيني وبين القــلم ، فسل القدرة عن شأني ، فإني مركب أزعجني من ركبني . فقال صدقت

ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد ، وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي ، فكم من لائم مــلوم ، وكم من ملوم لا ذنب له . وكيف خفي عليك أمري ، وكيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لهــا راكبة قبل التحريك ؟ وما كنت أحركها ولا أستسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أني ميتة أو معدومة ، لأني ما كنت أتحرك ولا أحرك ، حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته . وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزعجني من غمرة النوم ، وأرهقني إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلاني ورأيي . فقال صدقت

ثم سأل الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى صرفتها إلى التحريك ، وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ؟ فقالت الإرادة : لا تعجل عليّ

فلعل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت . وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم . وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل ، بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار . فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدرى بأي جرم وقفت عليه ، وسخرت له ، وألزمت طاعته . لكني أدرى أني فى دعة وسكون مالم يرد علي هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا ، وألزمت طاعته إلزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة . لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه ، والتحير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه . فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ، ودع عنى عتابك فإني كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ٭ أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت

وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ، ومعاتبا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة . فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت . وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انخططت بنفسي . فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى ، لأن الخط لا يكون إلا بالقلم

فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب . وقال : قد طال تعبي فى هذا الطريق ، وكثرت منازلى ؛ ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد ؛ وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال . فأما قولك إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه ، فإني لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر . ولا سراجا إلا من النار . وإني لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح ، والسراج ، والخط ، والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا . أسمع جعجعة ولا أرى طحنا . فقال له العلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت

إليها كثيرة . فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك فادرج عنه ، فكل ميسر لما خلق له

وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى المقصد ، فألق سمعك وأنت شهيد ، واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد ، والحبر ، والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة

والثانى : عالم الملكوت ، وهو ورائى . فإذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله ، وفيه المهامه ، والفيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المغرقة ، ولا أدرى كيف تسلم فيها

والثالث : وهو عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت . ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها ، منزل القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هي فى الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي فى حد اضطراب الماء ، ولا هي فى حد سكون الأرض وثباتها . وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت . فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع

فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض ، وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى . وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب ، وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء . أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام « لَوِ ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشَى عَلَى الْهَوَاءِ » لما [1] قيل له إنه كان يمشى على الماء

فقال السالك السائل . قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامه التى وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة؟

قال نعم . إفتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك ، وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم

---

(١) حديث قيل له ان عيسى يمشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء : تقدم

الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت ، كوشف بالقلم . أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم فى أول أمره كوشف بالقلم ، إذ أنزل عليه (إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [١])

فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فو الله ماأرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك . فقال العلم . لقد أبعدت النجعة : أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ أما علمت أن الله تعالى لاتشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لاتشبه يده الأيدى ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط ؟ وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت. فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ، ولا هو فى مكان ، بخلاف غيره. ولا يده لحم وعظم ودم ، بخلاف الأيدى . ولا قلمه من قصب . ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص فإن كنت لاتشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه ، وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف فى يده ، وقلمه ، ولوحه ، وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا . وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ، ومقدسا فحلا ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ، لعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى (إِنِّى أَنَا رَبُّكَ [٢])

فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور . فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك ، لعلك تجد على النار هدى . ففتح بصره

(١) العلق : ٣ ، ٤ ، ٥ (٢) طه : ١٢

فانكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ، ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام فى قلب البشر كلهم أصناف العلوم ، كان له فى كل قلب رأسا ولا رأس له . فقضى منه العجب وقال . نعم الرفيق العلم ، فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم فإنى أراه قلما لا كالأقلام

فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال : قد طال مقامى عندك ، ومرادتى لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، وأسأله عن شأنه . فسافر إليه ، وقال له : مابالك أيها القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ماتبعث به الإرادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال أو قد نسيت مارأيت فى عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته ، فأحالك على اليد ؟ قال لم أنس ذلك . قال فجوابى مثل جوابه . قال كيف وأنت لاتشبهه ؟ قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك ، فإنى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الآدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة . فقال فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [1]) قال نعم . قال والأقلام أيضا فى قبضة يمينه ، هو الذى يرددها . فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ، ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم ، لايجوز وصف شىء من ذلك ولا شرحه ، بل لاتحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع . فرأى القلم محركا فى قبضته . فظهر له عذر القلم . فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال : جوابى مثل ماسمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة ، وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها فى نفسها ، وإنما محركها القدرة لامحالة .

فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ماستحقر عندها ماقبله ، وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة ، فاسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات

وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ [2]) فغشيته هيبة

(1) الزمر : ٦٧ (2) الأنبياء : ٢٣

الحضرة، فخر صعقا يضطرب فى غشيته . فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك، تبت إليك، وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك، الجبار، الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك ، ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك فأقول . اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لسانى لأثني عليك

فنودى من وراء الحجاب . إياك أن تطمع فى الثناء ، وتزيد على سيد الأنبياء . بل ارجع إليه ، فما آتاك فخذه، وما نهاك عنه فانته عنه، وماقاله لك فقله. فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال « سُبْحَانَكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاء عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » [1] .

فقال إلهى إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك ، فهل للقلب مطمع فى معرفتك ؟ فنودي : إياك أن تتخطى رقاب الصديقين ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به ، فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم . أما سمعته يقول : العجز عن درك الإدراك إدراك ؟ فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا ، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا

فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته ، وقال لليمين ، والقلم ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، وما بعدها . اقبلوا عذرى ، فإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ، ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صح عندى عذركم ، وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، و الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته ، وهو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن

فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك ، وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخر ، وهما وصفان متناقضان ؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؟ فالأول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن . فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد . وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه ، فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر

---

(١) حديث سبحانك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : تقدم

فهو آخر فى المشاهدة، أول فى الوجود

وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة ، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة ، النافذة فى عالم الملكوت . فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل ، أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

فإن قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه ينبنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟

فأقول أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له . إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم ، لأنها لاتدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس

فإن قال : وأنا منهم ، فإنى لاأهتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ، ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا . ما نراه لا نثق به ، فلعلنا نراه فى المنام

فإن قال :وأنا من جملتهم ، فإنى شاك أيضا فى المحسوسات ، فيقال هذا شخص فسد مزاجه ، وامتنع علاجه ، فيترك أياما قلائل . وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء . هذا حكم الجاحد . وأما الذى لايجحد ، ولكن لايفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت . فإن وجدوها صحيحة فى الأصل ، وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية ، اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها ، كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه

فإن كان غير قابل للعلاج ، فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد ، كلموه بحرف وصوت ، وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه ، فإن فى عالم الشهادة أيضا توحيدا ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأميرين . فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد ، والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فيكون ذلك على ذوق ما رآه

فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله. وقد كلف الله أن يكلموا الناس على قدر عقولهم . ولذلك نزل القرءان بلسان العرب على حد عاداتهم فى المحاورة

فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه؟

فأقول نعم . فإن الاعتقاد إذا قوي عملَ عملُ الكشف فى إثارة الأحوال . إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا. ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه ، أو من أبويه ، أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك، بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا ، وإن كان يزداد وضوحا . كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ، ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته . وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ، فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر ، لطول مشاهدتهم وتجربتهم ، رأوا من موسى عليه السلام ماجاوز حدود السحر ، وانكشف لهم حقيقة الأمر ، فلم يكترثوا بقول فرعون (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ [1]) بل (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَاجَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَاأَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [2]) فإن البيان والكشف يمنع التغيير

وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامري ، وسمعوا خواره ، تغيروا ، وسمعوا قوله (هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى [3]) ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لامحالة إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة . والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى ، فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا

فإن قلت : ماذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الإنسان ، فانه يتحرك إن شاء ، يسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟

(١) طه : ٧١ (٢) طه : ٧٢ (٣) طه : ٨٨

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط . ولكن علم أنه يفعل مايشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ ، فليست المشيئة إليه . إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ، وتسلسل إلى غير نهاية . وإذا لم تكن المشيئة إليه ، فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ، ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة . فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة ، والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب ، فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض ، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ، ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ، ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر فى الجميع

فإن قلت : فهذا جبر محض ، والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لاتنكر الاختيار ، فكيف يكون مجبورا مختارا ؟

فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور . فهو إذاً مجبور على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا ، يليق بما ذكر متطفلا وتابعا ، فإن هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة ولكنى أقول :

لفظ الفعل فى الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الإنسان يكتب بالأصابع ، ويتنفس بالرئة والحنجرة ، ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه . فينسب إليه الخرق فى الماء ، والتنفس ، والكتابة ، وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور ، فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا . ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا

والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى ، لأنه مهما وقف على وجه الماء ، أو تخطى من السطح للهواء ، انخرق الهواء لامحالة ، فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا

والتنفس فى معناه ، فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس ، كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن . فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده . وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه . ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر ، مع ان تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادي ، ولكنه إذا

تمثل صورة الإبرة فى مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها . ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه ، مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا

وأما الثالث: وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس ، كالكتابة والنطق ، وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة يشاء وتارة لايشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار ، فلنكشف عنه

وبيانه أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك . والأشياء تنقسم إلى ماتحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ماقد يتردد العقل فيه . فالذى تقطع به من غير تردد ، أن يقصد عينك مثلا بإبرة ، أو بدنك بسيف ، فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق . فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ، ولكن من غير روية وفكرة . ويكون ذلك بالإرادة

ومن الأشياء مايتوقف التميز والعقل فيه ، فلا يدرى أنه موافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك . فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير ، التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر ، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان . فإذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أى هو انبعاث إلى ماظهر للعقل أنه خير ، وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر فى انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه ، إلا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية ، بل على البديهة ، وهذا افتقر إلى الروية

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة ، وهي التى انبعثت بإشارة العقل فيما له فى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين ، وشر الشرين . ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل ، أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه ، لا لعدم القدرة فى اليد، ولا لعدم السكين، ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة ، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس

بكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا له ، فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان فى عقوبة مؤلمة لا تطاق ، فإن العقل هنا يتوقف فى الحكم و يتردد ، لأن تردده بين شر الشرين . فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه . وإن حكم بأن القتل أقل شرا ، وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه ، انبعث الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذى يُتْبَعُ بالسيف للقتل ، فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا ، وإن كان مهلكا ، ولا يبالى ، ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه . فإن كان يتبع بضرب خفيف ، فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي ، فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ، ولا تنبعث له داعية ألبتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدرى ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولا

فإذاً معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا . وحدث الحكم أيضا جبرا ، فإذا هو مجبور على الاختيار . ففعل النار فى الإحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض . وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين ، فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ! لأنه لما كان فنّا ثالثا ، واتبعوا فيه بكتاب الله تعالى ، فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار ، بل هو جامع بينهما عند من فهمه .

وفعل الله تعالى يسمى اختيارا ، بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد ، فإن ذلك فى حقه محال . وجميع الألفاظ المذكورة فى اللغات لا يمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ، ويطول القول فيه

فإن قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة . والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة وإن كل متؤخر حدث من المتقدم ؟ فأن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى . وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض ؟

فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية . وهو الأصل الذى لم يقف

كافة الخلق عليه إلا الراسخون فى العلم ، فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا ، وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول . ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط ، فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا بعد حياة ، ولا حياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة ، فكذلك فى سائر درجات الترتيب . ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة ، وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق . وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى . ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [1] ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [2] ﴾

فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب ، وحق لازم ، لا يتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد . فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدورا . فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم . وكل ذلك منهاج الواجب ، وترتيب الحق ، ليس فى شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير

وتفهيم ذلك عسير ، ولكنا نضرب لتوقف المقدور ، مع وجود القدرة ، على وجود الشرط مثالا يقرب مبادىء الحق من الأفهام الضعيفة . وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد انغمس فى الماء إلى رقبته ؛ فالحدث لا يرتفع عن أعضائه ، وإن كان الماء هو الرافع ، وهو ملاق له . فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور ، كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط ؛ وهو غسل الوجه . فإذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء ، عمل الماء فى سائر أعضائه ، وارتفع الحدث . فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه ، لأنه حدث عقيبه

(1) الذاريات : ٥٦ (2) الحجر : ٨٥ ، ٧٦

إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا ، والماء لم يتغير عما كان ، فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل ! بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذاً غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين . وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم . وكل ذلك خطأ . بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها ، لا بغسل الوجه . والماء لم يتغير ، واليد لم تتغير ، ولم يحدث فيهما شيء . ولكن حدث وجود الشرط ، فظهر أثر العلة

فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية ، مع أن القدرة قديمة ، والمقدورات حادثة . وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ؛ فلنترك جميع ذلك ، فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد فى الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد ، فهو المخوف والمرجوّ ، وعليه التوكل والاعتماد . ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد . واستيفاء ذلك فى عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه . وكل ذلك ينطوى تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعز حقيقته ولبّه عند العلماء الراسخين فى العلم ، فكيف عند غيرهم

فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ، فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ، وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟

فأقول: نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد . وإن كان له معنيان ، ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض . كما يقال قتل الأمير فلانا ، ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر . فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عزوجل فاعل بمعنى آخر . فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلق فيه القدرة ؛ بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة ، وارتباط المخترع بالمخترع ،

وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا . لأن القتل ارتبط بقدرتهما ، ولكن على وجهين مختلفين . فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين

ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال فى القرءان مرة إلى الملائكة ، ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه . فقال تعالى فى الموت (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ [١]) ثم قال عز وجل (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [٢]) وقال تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ [٣]) أضاف إلينا ثم قال تعالى (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا [٤]) وقال عز وجل (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [٥]) ثم قال تعالى (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا [٦]) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ [٧]) قيل فى التفسير معناه إذ قرأه عليك جبريل . وقال تعالى (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ [٨]) فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين القتل . بل صرح وقال تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ [٩]) وقال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [١٠]) وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذى يكون العبد به راميا، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى (الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [١١]) ثم قال (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ [١٢]) وقال (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [١٣]) وقال (إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [١٤]) وقال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ [١٥])

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى [١] وصف ملك الأرحام إنه « يَدْخُلُ الرَّحِم

---

(١) حديث وصف ملك الارحام أنه يدخل الرحم ويأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا ـ الحديث: البزار وابن عدى من حديث عائشة ان الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا ـ الحديث : وفى آخره فما من شيء الا وهو يخلق معه فى الرحم وفى سنده جهالة وقال ابن عدى انه منكر وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه

---

(١) السجده : ١١ (٢) الزمر : ٤٢ (٣) الوقعة: ٦٣ (٤) عبس : ٢٥ ـ ٢٨ (٥) مريم : ١٧ (٦) التحريم: ١٢
(٧) القيامه: ١٨ (٨) التوبة: ١٤ (٩، ١٠) الأنفال. ١٧ (١١) العلق: ٤، ٥ (١٢، ١٣) الرحمن : ١، ٢
(١٤) القيامه : ١٩ (١٥) الواقعه : ٥٨ ، ٥٩

فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُهَا جَسَدًا فَيَقُولُ يَارَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى أَسَوِيٌّ أَمْ مُعْوَجٌّ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاشَاءَ وَيَخْلُقُ الْمَلَكُ » وفى لفظ آخر « وَيُصَوِّرُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ »

وقد قال بعض السلف : إن الملك الذى يقال له الروح ، هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد وأنه يتنفس بوصفه ، فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج فى جسم ، ولذلك سمي روحا . وماذكره فى مثل هذا الملك وصفته فهو حق ، شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل، والحكم به دون النقل تخمين مجرد

وكذلك ذكر الله تعالى فى القرءان من الأدلة والآيات فى الأرض والسموات ثم قال (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١]) وقال (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ [٢]) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا . بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى : وهو معنى قوله تعالى (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [٣])

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين . ففى الخبر [١] « أَنَّ مَلَكَي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ تَنَاظَرَا فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ أَنَا أُمِيتُ الأَحْيَاءَ وَقَالَ مَلَكُ الْحَيَاةِ أَنَا أُحْيِي الْمَوْتَى فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمَا. كُونَا عَلَى عَمَلِكُمَا وَمَاسُخِّرْتُكُمَا لَهُ مِنَ الصُّنْعِ وَأَنَا الْمُمِيتُ وَالْمُحْيِي لَا يُمِيتُ وَلَا يُحْيِي سِوَايَ »

فإذاً الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ، فلا تتناقض هذه المعانى إذا فهمت . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] للذى ناوله التمرة « خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ » أضاف الإتيان

---

(١) حديث ان ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا أحي الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث قال للذى ناوله التمرة خذها لو لم تأتها لأتتك : ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح

(١ ، ٣) فصلت : ٥٣ (٢) آل عمران : ١٣

إليه وإلى الثمرة، ومعلوم أن الثمرة لا تأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها. وكذلك لما قال التائب[١] أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد. فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ »

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة. ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير فى كلامه . وللتجوّز وجه ، كما أن للحقيقة وجها . واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز ، مثل نسبة القتل إلى الأمير، فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد . فلما انكشف الحق لأهله ، عرفوا أن الأمر بالعكس ، وقالوا إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوي المخترع ، فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ، ولغيره بالمجاز ، أي تتجوّز به عما وضعه اللغوي له . ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا ، صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال[٢] « أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ قَوْلُ لَبِيدٍ » : أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ

أي كل مالا قوام له بنفسه ، وإنما قوامه بغيره ، فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه

فإذاً لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم ، الذى ليس كمثله شيء ، فإنه قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق ، وما سواه باطل. ولذلك قال سهل : يامسكين، كان ولم تكن ، ويكون ولا تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا ، كن الآن كما لم تكن ، فإنه اليوم كما كان

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب ، والعقاب ، والغضب ، والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول بإعادته . فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل . ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل ، وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل

---

(١) حديث انه قال للذى قال أتوب إلى الله ولا أتوب الى محمد عرف الحق لأهله : تقدم فى الزكاة

(٢) حديث أصدق بيت قاله العرب بيت لبيد : ألا كل شيء ماخلا الله باطل : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان ؛ وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه ، وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ،أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ماتحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات ، حتى اطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم ؛ مع التعاون والتظاهر عليه، أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ، ولا أن يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض ، أو عيب ، أو نقص ، أو فقر ، أو ضر عمن بلي به ، ولا أن يزال صحة ، أو كمال ، أو غنى ، أو نفع ، عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر ، وطولوا فيها النظر ، ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور .. وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل ؛ وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ماينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدر الذى ينبغي : وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه ، ولا أتم ، ولا أكمل . ولو كان ، وادخره مع القدرة ، ولم يتفضل بفعله . لكان بخلا يناقض الجود ، وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية. بل كل فقر وضر فى الدنيا، فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة . وكل نقص فى الآخرة بالإضافة إلى شخص ، فهو نعيم بالإضافة إلى غيره . إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة

وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم ، وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران ، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل. ومالم يخلق الناقص لا يعرف الكامل.

ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا

وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل ، لأنه فداء كامل بناقص ،فكذلك الأمر فى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور فيه ، وحق لا لعب فيه . وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق ، واسع الأطراف ، مضطرب الأمواج ، قريب فى السعة من بحر التوحيد ، فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضي به ، وقد كان ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هي أصول مقام التوكل ، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشطر الثانى

من الكتاب فى أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ماقاله الشيوخ فى حد التوكل ، وبيان التوكل فى الكسب المنفرد والمعيل ، وبيان التوكل بترك الادخار ، وبيان التوكل فى دفع المضار ، وبيان التوكل فى إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته

بيان

حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله ، والعمل ثمرته . وقد أكثر الخائضون فى بيان حد التوكل ، واختلفت عباراتهم . وتكلم كل واحد عن مقام نفسه ، وأخبر عن حده ، كما جرت عادة أهل التصوف به . ولا فائدة فى النقل والإكثار ، فلنكشف

الغطاء عنه ونقول : . التوكل مشتق من الوكالة . يقال وكل أمره إلى فلان ، أى فوضه إليه ، واعتمد عليه فيه . ويسمى الموكول إليه وكيلا ، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ، ومتوكلا عليه ، مهما اطمأنت إليه نفسه ، ووثق به ، ولم يتهمه فيه بتقصير ، ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول :

من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس ، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس ، لم يكن متوكلا عليه ، ولا واثقا به ، ولا مطمئن النفس بتوكيله ، إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة

أما الهداية : فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلا

وأما القدرة والقوة : فليستجرىء على التصريح بالحق فلا يداهن ، ولا يخاف ، ولا يستحى ، ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف ، أو الجبن ، أو الحياء ، أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به

وأما الفصاحة : فهي أيضا من القدرة ، إلا أنها قدرة فى اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه ، وأشار إليه ، فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس

وأما منتهى الشفقة ، فيكون باعثا له على بذل كل مايقدر عليه فى حقه من المجهود ، فإن قدرته لا تغنى دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ، ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك . فإن كان شاكا فى هذه الأربعة ، أوفى واحدة منها ، أوجوز أن يكون خصمه فى هذه الأربعة أكمل منه ، لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزعج القلب ، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع مايحذره من قصور وكيله ، وسطوة خصمه . ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه . والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر ، إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل ؛ وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية . وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة

والتجربة ، وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا ، وأقواهم بيانا ، وأقدرهم على [illegible] ، بل على تصوير الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

فإذا عرفت التوكل فى هذا المثال ، فقس عليه التوكل على الله تعالى . فإن ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم ، أنه لا فاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة

فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه . فإن القلب قد ينزعج تبعا للوهم ، وطاعة له ، عن غير نقصان فى اليقين . فإن من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه ، وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت فى قبر ، أو فراش ، أو بيت ، نفر طبعه عن ذلك ، وإن كان متيقنا بكونه ميتا ، وأنه جماد فى الحال ، وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه ، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذى فى يده حية ، ولا يقلب السنور أسدا وإن كان قادرا عليه . ومع أنه لا يشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش ، أو الميت معه فى البيت ، ولا ينفر عن سائر الجمادات . وذلك جبن فى القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضا ، حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه

فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون فى القلب شيء ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام (أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [1])

---

(1) البقرة ٢٦٠

فالنفس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت فى خياله ، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به . ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لايكون فى البداية أصلا . وكم من مطمئن لايقين له ، كسائر أرباب الملل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه . فإذاً الجبن والجراءة غرائز ، ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب . وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى . وقد قيل مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته إنسان مثله . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنِ اسْتَعَزَّ بِالْعَبِيدِ أَذَلَّهُ اللهُ تَعَالَى »

وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلا ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات : الدرجة الأولى : ماذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى : والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله فى الثقة بالوكيل

الثانية : وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه . فإنه لايعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولايعتمد إلا إياها . فإذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها . وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه ياأماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه ، فإنها مفزعه . فإنه قد وثق بكفالتها ، وكفايتها ، وشفقتها ، ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذى له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ، ولا على إحضاره مفصلا فى ذهنه . ولكن كل ذلك وراء الإدراك . فمن كان باله إلى الله عز وجل ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلا حقا . فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد فني فى توكله عن توكله ، إذليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته

---

(١) حديث من اعتز بالعبيد أذله الله: العقيلي فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر أورده العقيلي فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال لايتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخالف فى روايته

بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه .وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب ، وليس فانيا عن توكله ، لأن له التفاتا إلى توكله وشعورا به .وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وإلى هـذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ماأدناه؟ قال : ترك الأماني، قيل وأوسطه ؟ قال: ترك الاختيار .وهو إشارة إلى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لايعرفه إلا من بلغ أوسطه

الثالثة : وهي أعلاها ، أن يكون بين يدي الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، لايفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يدُ الغاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا ، فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ،ويفارق الصبي ، فإن الصبي يفزع إلى أمه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه. وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل . فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء، وبغير الاستحقاق، والمقام الثانى لايقتضى ترك الدعاء والسؤال منه ، وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها

فاعلم أن ذلك ليس بمحال ، ولكنه عزيز نادر . والمقام الثانى والثالث أعزها . والأول أقرب إلى الإمكان . ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لايكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل . فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع ، وانقباضه عارض . كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع،وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن ، حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة . فإن البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة، وذلك لايدوم .وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لايدوم . وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم ، فإنه قد يدوم يوما ويومين . والأول يشبه صفرة مريض

استحكم مرضه ، فلا يبعد أن يدوم ، ولا يبعد أن يزول . فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال ؟ . فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأسا مادامت الحالة باقية . بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثانى ينفى كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لاينفى أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفى بعض التدبيرات، كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به؛ أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته . فأما الذى يعرفه بإشارته بأن يقول له . لست أتكلم إلا فى حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته فى إظهار الحجة ، ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له ، إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له فى قوله لما حضر بقوله . وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لايحاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلا عليه أن يكون معوّلا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها ، وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته

فإذاً لا يستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى إحضار السجل .ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصا فى توكله ، فكيف يكون فعله نقصا فيه ! نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته ،وقعد ناظرا إلى محاجته ،فقد ينتهى إلى المقام الثانى والثالث فى حضوره، حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته ، إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه إلى حوله وقوته فى الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته.فلم يبق إلا الطمأنينة النفس والثقة بالوكيل ، والانتظار لما يجرى . وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فى التوكل ،وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل، وأن كل تدبير وعمل لايجوز أيضا مع التوكل ، بل هو على الانقسام ، وسيأتى تفصيله فى الأعمال

فإذاً فزعُ المتوكل إلى حوله وقوته فى الحضور والإحضار لا يناقض التوكل، لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلا وتعبا محضا بلاجدوى . فإذاً لا يصير مفيدا من حيث إنه حوله وقوته ،بل من حيث أن الوكيل جعله معتمدا لمحاجّته،وعرّفه ذلك بإشارته

وسنته . فإذاً لا حول ولا قوة إلا بالوكيل . إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل؛ لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما، ولم يكونا مفيدين لولا فعله. وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق ، وهو الله تعالى ، إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد، وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد

فإذاً لا حول ولا قوة إلا بالله حقا وصدقا . فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار [١] فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان ، وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات ! فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد . ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى. إذ في هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط ، وهما الحول والقوة . وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه. فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا.

وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات. وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ قَالَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد، كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح

فالملك لا ينال بالحديث ، وحركة اللسان حديث ، وعقد القلب أيضا حديث ، ولكنه حديث نفس . وإنما الصدق والإخلاص وراءهما . ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك . أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال (عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ [١])

---

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات

(٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة : الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(١) الواقعة : ١٥ ، ١٦

ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء ، والظل ، والفواكه ، والأشجار ، والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور ، والمشروب ، والمأكول ، والمنكوح . ويتصور ذلك للبهائم على الدوام . وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ! ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ، ولما رفعت عليها درجة الملائكة

أفترى أن أحوال البهائم وهي مسيبة فى الرياض ، متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات ، متمتعة بالنزوان والسفاد ، أعلى وألذ وأشرف ؛ وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين ؟ هيهات هيهات ، ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام

وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه ، وأن النفس التى نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفة أشبه فى جوهره منه بالكتاب . وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة . وهؤلاء هم الذين يقال فيهم (أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ[1]) وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففى قوته ذلك ، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال

وإذ كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود ، فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ، ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت : ليس فى قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله ؛ فلو قال قائل : السماء والأرض خلق الله ، فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟

فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ، ولا مساواة بين الدرجتين . ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة ، إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الأمور بعظم الأشخاص . بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة

(١) الأعراف : ١٧٩

الآدميين ، بل هما من خلق الله تعالى . فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة، وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره،فهي مهلكة مخطرة ، ومزلة عظيمة ، هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا ، وهو شرك فى التوحيد : وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إيّاه فقد علت رتبته ، وعظمت درجته . فهو الذى يصدق قول :لاحول ولا قوّة إلا بالله . وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد إلا عقبتان : إحداهما النظر إلى السماء والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والغيم ، والمطر ، وسائر الجمادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات ، وهي أعظم العقبتين وأخطرهما ، وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة ، أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها

فإذاً رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوّة ، والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى

بيان

ما قاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أن شيئا منها لايخرج عما ذكرنا ، ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الديلى : قلت لأبى يزيد ماالتوكل ؟ فقال ماتقول أنت ؟ قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ، ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد . نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل . فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجلّ أحوال التوكل ، وهو المقام الثالث . وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعزّ أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل ، وهو العلم بالحكمة ، وأن مافعله الله تعالى فعله بالواجب ، فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة . وهذا أغمض أنواع العلم،ووراءه سر القدر ،وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات

وليس ترك الاحتراز عن الحيّات شرطا فى المقام الأوّل من التوكل فقد احترز [1] أبو بكر

---

(١) حديث ان أبا بكر سد منافذ الحيات فى الغار شفقة على النبى صلى الله عليه وسلم: تقدم

رضي الله عنه في الغار إذ سد منافذ الحيات ، إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه . وللنظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيّات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيّات ، إذ لا حول للحيّات ولا قوّة لها إلا بالله . فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوّته في الاحتراز ، بل على خالق الحول والقوّة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال : خلع الأرباب ، وقطع الأسباب . فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال ، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه . فقيل له زدنا . فقال . إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية . وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دانق دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك . ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء ، لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك . وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال . فقال السائل زدني . فقال . ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالأوّل عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال أمّا إليك فلا . إذ كان سؤاله سببا يفضي إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له . فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره . وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . ولعله يشير إلى المقام الثاني . فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه . وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب

الطفل بيديه إلى أمه ، وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلّم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد . ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك . وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه ، فلا نطول بها ، فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل . فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه

بيان

أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يثمر الأعمال . وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال . فإن ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل نكشف الغطاء عنه ونقول :

إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع : أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة ، وهو جلب النافع ، أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه . فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع . الفن الأول : فى جلب النافع فنقول فيه : الأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به . وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف . كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك ، وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تمد إليه اليد وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة ،

وكذلك مضغه بالأسنان، وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسفله ، فهذا جنون محض، وليس من التوكل فى شيء . فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله تعالى . وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت فى أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام ، فكل ذلك جنون . وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه . فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل ، بل بالحال، والعلم

أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام ، واليد ، والأسنان ، وقوة الحركة ، وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال : فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى ، لا على اليد والطعام . وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج ا وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال ما يزيل عقلك ، ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه، أو يبعث حية تزعجك عن مكانك ، وتفرق بينك وبين طعامك ! وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى ، فبذلك فلتفرح ، وعليه فلتعول. فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل

الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا . كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرا ، ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكل . بل استصحاب الزاد فى البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق . ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل، ولذلك كان يفعله الخواص . فإن قلت : فهذا سعي فى الهلاك وإلقاء النفس فى التهلكة

فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما : أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها ، وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر ، وتعذر فى ذكر الله تعالى . والثاني : أن يكون بحيث يقوى على التقوت الحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة . فبعد هذين الشرطين لا يخلو فى غالب الأمر

فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي، أو ينتهى إلى حلة، أو قرية، أو إلى حشيس يجتزى به، فيحيا به مجاهدا نفسه. والمجاهدة عماد التوكل. وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين

والدليل عليه أن الخوّاص كان لا تفارقه الإبرة ، والمقراض ، والحبل ، والركوة ويقول: هذا لا يقدح فى التوكل . وسببه أنه علم أن البوادى لا يكون الماء فيها على وجه الأرض . وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو فى البوادى كما يغلب وجود الحشيش. والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ، ولعطشه فى كل يوم أو يومين مرة ، فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام. وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة فى البوادى غالبا عند كل صلاة، ولا يقوم مقامهما فى الخياطة والقطع شيء مما يوجد فى البوادى. فكل ما فى معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب ، أو يعطيه إنسان ثوبا ، أو يجد على رأس البئر من يسقيه . ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه. فبين الدرجتين فرقان، ولكن الثانى فى معنى الأول

ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ، ولا يطرقه طارق فيه ، وجلس متوكلا ، فهو آثم به ، ساع فى هلاك نفسه . كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام فى سفح جبل سبعا وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتينى ربى برزقى . فقعد سبعا ، فكاد يموت ولم يأته رزق . فقال : يارب إن أحييتنى فائتنى برزقى الذى قسمت لى ، وإلا فاقبضنى إليك . فأوحى الله جل ذكره إليه : وعزتى لا رزقتك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس . فدخل المصر وقعد ، فجاءه هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فأكل وشرب ، وأوجس فى نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا . أما علمت أنى أن أرزق عبدى بأيدى عبادى أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى . فإذاً التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل ، كما ضربناه مثلا فى الوكيل بالخصومة من قبل. ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب . فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد

بغير كسب، أهو حرام أومباح أومندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لايبعد أن يأتيه الرزق من حيث لايحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام . وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله ، غير مستشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله ، فهو أفضل . وهو من مقامات التوكل . وهو أن يشتغل بالله تعالى ، ولا يهتم برزقه ، فإن الرزق يأتيه لامحالة . وعند هذا يصح ماقاله بعض العلماء ، وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه ، كما لو هرب من الموت لأدركه . وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ، ولقال له ياجاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ! . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لارازق ولا مميت إلا الله تعالى .

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً وَلَزَالَتْ بِدُعَائِكُمُ الْجِبَالُ »

وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لاتزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يوما بيوم . فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق

وقال أبو يعقوب السوسي . المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم، وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم . العبيد كلهم في رزق الله تعالى ، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار ، وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعز كالصوفية ، يشهدون العزيز ، فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة

---

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله ـ الحديث : وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدما قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلا دون قوله لمشيتم على البحور وقال حماها منقطع

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه. وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم . أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة إكتسابا مباحا لمال مباح . فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب . فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل . وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضار ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ، ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ، ولا يأخذون من أحد شيئا ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب . وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها

وقال سهل في التوكل : إنه ترك التدبير . وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم . ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر ، فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية . فإذاً قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل ، وإلى ما لا يخرج . وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به ، وإلى مظنون. وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه ، وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا . والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات

الأول : مقام الخوّاص ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك .فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد زاده ، أو يضل بعيره ، ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد ، كما أنه يمكن مع فقده

المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد .ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأوّل ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معوّل على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ،إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره

إلى الذي يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم

المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعي لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته ، وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة . بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يري كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ، وإلى ماذا يميل ، وبم يحكم

ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله ، أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب ، وبقلبه عنه منقطع . فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته

والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط، وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق ، أن الصديق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذ الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ، ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ! فقال لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع . حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم ، وتطييب قلوبهم ، واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولي . ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل . فمن أولى بهذا المقام منه ! فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ، والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب، وبشروط كان راعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار ، وتفاخر ، وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره . فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها . ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا . نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد

وقال أبو جعفر الحداد : وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما ، وكان من المتوكلين . أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق . كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه

دانقاء ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته، وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل . فإن لم يكن معلوم ووقف، وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب . وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم . لكنه بعد اشتهار القوم بذلك ، فقد صار لهم سوقا، فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق

فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر ، وذكر ، وإخلاص ، واستغراق وقت بالعبادة، وكان الكسب يشوش عليه ذلك ، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا، بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى ، فالقعود له أولى: وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب . وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم، كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه ، فرده فلما ولّى قال له أحمد . الحقه وأعطه فإنه يقبل . فلحقه وأعطاه فأخذه . فسأل أحمد من ذلك فقال . كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ

وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخوّاص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره . رأيت الخضر ورضي بصحبتي ، ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلي . فإذاً المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فإن قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول :علامته أنه إن سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا . فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده . ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه . وكان بشر يعمل المغازل فتركها ، وذلك لأن البعادي كاتبه قال : بلغني أنك

استعنت على رزقك بالمغازل ، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك ، الرزق على من ؟ فوقع ذلك فى قلبه ، فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها . وقيل فعل ذلك لما مات عياله ، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فرقها

فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها ، وهو يعلم أن التكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له ، فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه ، وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغى أن يعتقد أن الموت جوعا خير له فى الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك ، من غير تقصير من جهته فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها . ففى الخبر [1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَهُمُّ مِنَ اللَّيْلِ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ التِّجَارَةِ مِمَّا لَوْ فَعَلَهُ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُ فَيَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ فَيَصْرِفُهُ عَنْهُ فَيُصْبِحُ كَئِيبًا حَزِينًا يَتَطَيَّرُ بِجَارِهِ وَابْنِ عَمِّهِ مَنْ سَبَقَنِي مَنْ دَهَانِي وَمَا هِيَ إِلَّا رَحْمَةٌ رَحِمَهُ اللهُ بِهَا » . ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى لا أدرى أيهما خير لى . ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك ، فإنى ما شممت منه رائحة . هذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ، ولكنه قال ما أدركته . ولعله أراد إدراك أقصاه

وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله . ولا رازق سواه ، وأن كل ما يقدره على العبد من فقر ، وغنى ، وموت ، وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد ، لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق . وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة : التوكل مقام مفهوم ، ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين . ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة . ومن طعن على

(١) حديث ان العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف جدا نحوه الا انه قال ان العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا ـ الحديث بنحوه

ترك التكسب فقد طعن على التوحيد. فإن قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة، وحسن الظنّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية ؟

فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظنّ تلقين الشيطان، وحسن الظنّ تلقين الله تعالى قال الله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً[1]) فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع. وإذا انضم إليه الجبن، وضعف القلب، ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها، غلب سوء الظنّ وبطل التوكل بالكلية. بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم، فقال له الإمام لو اكتسبت لكان أفضل لك. فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا، فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين. فقال: إن كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك. فقال: ياهذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك، إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق

وقال إمام المسجد لبعض المصلين: من أين تأكل ؟ فقال ياشيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك. وينفع في حسن الظنّ بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه، وفيه عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشي، وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم، فقيل له. ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال. بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما. ثم دخلنا الكوفة. فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليّ إبراهيم وقال. ياحذيفة، أرى بك الجوع. فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس، فجئت به إليه فكتب . بسم الله الرحمن الرحيم. أنت المقصود إليه بكل حال؛ والمشار إليه بكل معنى. وكتب شعرا

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر   أنا جائع أنا ضائع أنا عاري

هي ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها ياباري

---

(1) البقرة : ٢٦٨

مدحي لغيرك لهب نار خضتها　　فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليّ الرقعة ، فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك . فخرجت ، فأول من لقيني كان رجلا على بغلة ،فناولته الرقعة فأخذها، فلما وقف عليها بكى وقال :مافعل صاحب هذه الرقعة ؟فقلت هو في المسجد الفلاني .فدفع إليّ صرة فيها ستمائة دينار . ثم لقيت رجلا آخر ، فسألته عن راكب البغلة ، فقال هذا نصراني . فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال لا تمسها فإنه يجيء الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل النصراني، وأكب على رأس إبراهيم يقبله، وأسلم

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري . جعت مرة بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفا ، فحدثتني نفسي بالخروج . فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئا يسكن ضعفي . فرأيت سلجمة مطروحة، فأخذتها ،فوجدت في قلبي منها وحشة ، وكأن قائلا يقول لي جعت عشرة أيام ، وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت. فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة ، وقال هذه لك . فقلت كيف خصصتني بها ؟ قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين . وأنت أول من لقيته . فقلت . افتحها . ففتحها فإذا فيها سميد مصري ، ولوز مقشور ، وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم وقد قبلتها ،ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي

وقال ممشاد الدينوري . كان علي دين ، فاشتغل قلبي بسببه . فرأيت في النوم كأن قائلا يقول : يابخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما

وحكي عن بنان الحمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد ، فجاءتني امرأة وقالت لي يابنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك ! قال فرميت بزادي . ثم أتى علي ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا في الطريق ، فقلت

فى نفسى احمله حتى يجيء صاحبه ، فربما يعطينى شيئا فأرده عليه . فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت . أنفقها . فاكتفيت بها إلى قريب من مكة

وحكي أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا هو ذا يجيء النفير فنشترى مايوافق . فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا إنها تصلح له . فقالوا لصاحبها . بكم هذه ؟ فقال إنها ليست للبيع . فألحوا عليه ، فقال إنها لبنان الحمال ، أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة

وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص . فقال إن أكلته مت . فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكلـه فارزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره . فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله ، وبقى القرص عنده

وقال أبو سعيد الخراز . دخلت البادية بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأن وصلت . ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره ؛ وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها . فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى . فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا . يا أهل المرحلة ، إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه . فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية

وروي أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه ، فإذا هو بقائل يقول . ياهذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرءان فإنه سيغنيك عن باب عمر . فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة . فجاءه عمر فقال له . إنى قد اشتقت إليك ، فما الذى شغلك عنى ؟ فقال إنى قرأت القرءان فأغنانى عن عمر وآل عمر . فقال عمر : رحمك الله ، فما الذى وجـدت فيه ؟ فقال وجـدت فيه (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [1]) فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعـــد ذلك يأتيه ويجلس إليه

وقال أبو حمزة الخراسانى : حججت سنة من السنين ، فبينا أنا أمشي فى الطريق إذ وقعت

---

(١) الذاريات : ٢٢

فى بئر . فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث : فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر . تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد . فأتوا بقصب وبارية ، وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصيح ، فقلت فى نفسى . إلى من أصيح ؟ هو أقرب منهما . وسكنت . فبينا أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشىء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله ، وكأنه يقول . تعلق بى ، فى همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى ، فإذا هو سبع ، فمر وهتف بى هاتف . يا أبا حمزة ، أليس هذا أحسن ؟ نجيناك من التلف بالتلف . فمشيت وأنا أقول

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى ... وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف

تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى ... إلى غائبى واللطف يدرك باللطف

تراءيت لى بالغيب حتى كأنما ... تبشرنى بالغيب أنك فى الكف

أراك وبى من هيبتى لك وحشة ... فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف

وتحيي محبا أنت فى الحب حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر . وإذا قوي الإيمان به ، وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ، ولذلك حبسه عنه ، تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات . وإلا فلا يتم أصلا

فهرست الجزء الثالث عشر

صفحة

صفحة